رواية

عِتق

أميرة الشربيني

دارْ دوّنْ

عِتقْ

الطبعة الأولى ديسمبر ٢٠١١
رقم الإيداع : ٢٠١١/٢٢٢٣٩
الترقيم الدولي : ٨-٧١-٦٣٣٧-٩٧٧-٩٧٨
غلاف : إسلام عبد اللّطيف
التحرير الداخلي : أحمد سلامة
المراجعة اللغوية : أ.محمود الغنام

١ شارع السعادة
نصوح - الزيتون - القاهرة
تليفون: ٠١٤٩٢٨٩٢١٤
فاكس: ٢٤٥٢٥٠٥٤ (٠٢)
E-mail: dawen@daralkotob.com
بالتعاون مع موقع دار الكتب الإلكتروني:
www.daralkotob.com

عِتقْ

أميرة الشربيني



دار دوّن للنشر والتوزيع
الأفكار تولد حرة لا تقبل التقييد

" لا شيء يعود إلى سابق عهده "

فريدة ..

الأول

(١)

كان الوقت قد مر وحملنا جميعا معه بعيدا عن تلك الأيام، والذكرى أو الصدفة كلاهما كانتا مجرد اقتناص للحظات من الحاضر من أجل الماضي والمستقبل، الحاضر الذي يخلف وراءه الحكايات بما فيها، يقلّص حجم الحزن ويزيد المسافات بيننا وبين ما قد ولى، فيكسبنا اتساع المنظور واختلافه، الوقت يحملنا بعيدا عندما نترك أنفسنا له، يحرر أرواحنا العالقة، إن اتكأنا عليه من أجل المضي قدما.

الكتابة قد تعد اقتناصا لبعض من الحاضر من أجل ما قد مضى أو ما هو آت، الكتابة كانت شغفي وعملي الثابت الوحيد وقتها، كان لي عمود أسبوعي بجريدة، وعلى الجانب كنت دوما أكتب، وأعد لنشر مجموعة قصصية، سمّيتها "كتاب الحكايات"، كان هذا ما أفعله يوم عرفته، وبعدها بدت الكلمات بجانبه مكررة ومبتذلة ولا داعي لها، وفي هذا الشعور تحديدا كمنت دهشتي، وتلك الراحة التي كنت أشعر بها معه استعصى الوصف على إحاطتها.

إنني لا أكتب الآن عن الحب؛ لأن تلك حكاية عن الشك، عن الكفر بالحب ونبذ وجوده، تلك حكاية عن رجل بلا اسم، والاسم لا يعني الكينونة لكنه علم بوجود، وبين نفسي التي ارتاحت لوجوده ومنطقي الذي رفضه أغفلت ذكره وتناسيت حكايته وجعلته بلا اسم، وكأنني أرد عليها قبولها له بنكراني.

قد يكمن سر تلك الحكاية في "التقبّل"، وقد تكون تلك هي الكلمة التي خلصت إليها اليوم بعد ما مرّ الوقت، عن نظرة الآخر التي تشغلك مهما ادّعيت العكس، عن قبوله لعيوبك قبل محاسنك، وما يشكّله هذا من دعم لك في الأزمات، ورفضه لك كما أنت مما ينقض أساس المودة، إننا نريد تغيير من نزعم أننا نحب، كي يصيروا كيفما نريد نحن، والمودة الحقيقية هي أن نريد دون رغبة في تغيير، فيما بعد سألت نفسي كيف بقيت معه؟ فلم تجبني بأنها أحبته، أجابتني ببساطة أنها " عرفته"، وبين مفهوم نفسي للمعرفة وما تراه بصيرتها رغم كل شيء، عرفت أنا ما لزمني لما بعد.

اليوم وأنا أكتب وبعدما ولّت أيام الاضطراب، ووقفت على أرض الثبات أستطيع القول بمنتهى التحرر أن الحب بسيط، رغم

تعقيده، وأن أرواحنا تنجذب بصدق ونفسد عليها صدقها، انجذاب أرواحنا هو لحظة حالية، حاضرة يتنازع عليها كل من الماضي والمستقبل ليفسداها، فنرحل، والرحيل هو شكل من أشكال عدم التقبّل.

وقد كان رحيله حتميا ومتوقعا وأحيانا يتشككون إن كان قد جاءلي حقا أم إنه محض خيال، وقد كنت أعرف بحتمية رحيله، لكنني لم أسأل كيف أجد له طريقا بعده.

فقط وقفت في منتصف المنزل في ذلك اليوم الذي أذكره جيدا، بشعري المرسل خلف ظهري وقدميّ الحافيتين، أبدو كغجرية متعبة بعد ليلة رقص، جفوني متثاقلة وصوتي واهن على غير العادة، وذهني خالٍ وكأنما فرغ من كل الكلمات، لم أشعر بغضب ولا برغبة في البكاء، فقط ظللت أدور في أنحاء البيت دون هدف، وأطلب رقم هاتفه المغلق تكرارا دون غاية.

رغم عدم معرفتي بما سأقوله تحديدا إن فتح هاتفه وأجابني، لكن الكلمات تزاحمت بوجداني، وزادت من شعوري بالاختناق، ولم أستطع أن أكلّم أحدا، فلا أحد يعرف تلك الحكاية، حتى صديقة عمري "سلمى" لم تعرف اسمه أو تفاصيل أحداثنا معا،

وكان هذا مسببا لشجار بيننا لم أَلُمْها عليه، لم يوجد يومها من أكلمه في ذلك اليوم سوى نفسي..

ولم تكن تلك المرة الأولى التي نتشاجر أنا وهو ويغيب فيها عني وكل مرة لم أعرف إن كان سيعود.. لكن تلك المرة تحديدا أثارت جزعي؛ لأني كنت مسافرة بعد أسبوعين خارج مصر.

شعرت يومها بسخرية القدر المريرة.. رتّب هو الرحيل كي يكون هو من سبق.. اتفاقنا المبدئي ظل ضمنيا وغير معلن، وظل ساريا في وجداننا طوال الوقت.. "من حق أي منا أن يرحل وقتما يشاء"!

سبقني هو كعادته، فهو رجلي الذي تركت له بكامل مشيئتي زمام الأمور، حتى في الغضب والهجر والفراق تركت له السبق؛ فهو الذي يهجر ولا يُهجر ويعود وقتما يشاء وكيفما يريد، لم يُجبرني هو على شيء، واحترامي له وقوامته عليّ كانت حرّ رغبتي.

كان يسألني لماذا تحبينني؟ وكنت أصمت عن الإجابة، وما فائدة القول إن كان الرحيل هو نهاية المطاف؟!

رحيله كان حتميا، وفي الأصل كلانا كان مرتحلا لا يودّ إنزال متاعه بعدُ، كان ترافقنا اختيارا وافتراقنا هاجسا سيطر على كلينا فسرنا معا بالطريق منتظرين مفترق الطرق، وكأنما نخشى أن تمتد الأرض مع الخطى المكتوبة، فنعلق معا إلى ما لا نهاية.

كان هو يخشى الوقت، وكم طالبته أن يصبر، قلت له إن الوقت يخبر كل شيء لكن لا صبر، وأن الصمت والصبر مكملان لمتوالية ثلاثية تؤدي بنا إلى التأويل.

لكنه كان يخشى التأويل أيضا، وربما كنت أخشاه أكثر منه.. لم يستحق أي منا المعرفة التي تهبها إيانا الحكمة، فكُتب على حكايتنا التيه بين التفسيرات، وكُتب عليه أن يظل بلا اسم، وأن أبحث أنا عنه في كل مكان..

تلك حكاية حجبها الصمت ويقين أفسده الشك.. وسؤال أفسدت إجابته نسبية الاحتمالات، حكاية بدأت يوم هجره لي.

يومها كان اضطرابي عظيما.. ارتديت ملابسي وخرجت لا أدري أين أذهب؟

يومها بدأ العد التنازلي لرحيلي أنا عن مصر.. أسبوعان كنت مطالبة فيهما أن أنهي كتابي من أجل تسليمه لدار النشر، وأن

أنهي كل متعلقاتي بمصر، أثناء ما أحضّر لزفاف شقيقتي، وفي ذلك اليوم أضيفت لمهماتي مهمة جديدة؛ أن أتعامل -وحدي- مع فاجعة افتقاده. لم أبكِ يومها.. ولم أستطع الكتابة.. غادرت بيتي الذي أقطن فيه معظم الوقت وحدي، كنت بحاجة إلى أن أجلس مع أحدهم؛ فتزاحم الأفكار في رأسي كان أكبر من قدرة احتمالي.

***

(٢)

تطلعت "سلمى" إليّ دون أن تعلّق وأطرقت أنا هربا من عينيها، منذ دخل هو حياتي وبدا عليّ التغير وأخفيت عنها لأول مرة بعمرنا، حذّرتني هي من هذا اليوم، في البداية كنت أتعلل بأني عاجزة عن الكلام عنه أو توصيف مشاعري تجاهه، كنت أقول لها إنه يدفعني للصمت، فكانت تقول لي إن التفسير أبسط من تعقيداتي ومبالغتي في التحليل.. وإنني ببساطة لا أريد أن أعترف أني أحب، وأن هناك سببا ما لإخفائي هوية الرجل الذي أحببت، وأنني ألفّ وأدور حول الحكاية؛ خوفا من المواجهة، والصمت كان حيلة عجزي.

في بيتها المصبوغ بلونها المفضل "اللون الأرجواني"؛ حيث هو لون كل أشيائها، جلست أمامها مطرقة، رفيقة عمري وسندي على مر السنوات، تشاغلت عنها قليلا بملاعبة ابنتها حتى أتت خادمتها بالشاي والكيك، وأخذت مني "ياسمين" للداخل بأمر من "سلمى"، فبقينا أنا وهي وحدنا..

نظرت لها وتنهدت قائلة:

- موجوعة.

زفرت هي وغمغمت بما يشبه الشماتة:

- كنت أعرف بمجيء هذا اليوم ، وتركتك لصمتك وعنادك.

نظرت إليها ولم أجب، هي أكثر قسوة مني أحيانا كثيرة، تسللت المرارة لها منذ زمن، وبصمت على قلبها بشيء من قسوة، بينما ظللت أنا بنداوة القلب الغضّ؛ ربما لأني بجانبها كنت دوما المرفهة المدللة.

أطرقت إثر لومها أكثر، وجلست صامتة مستندة بمرفقي على ساقي ممتدة بجزعي للأمام..

تطلعت إليّ لبرهة ثم سألتني برفق وصوت به الحب الصادق الذي تكنّه كل منا للأخرى بعد كل تلك السنوات:

- تريدين أن تحكي؟

تنهدت وأنا أخبرها:

- إن الألم الحقيقي يجعلك عاجزة عن الحكي، والشكوى هي الملهاة التي يتسلى بها البشر عندما يخدشهم الألم من على السطح، بينما الدموع هي لغة العجز عندما لا يكون أمامك خيار آخر.

أمسكت بفنجانها وأسندت ظهرها للوراء، وقالت بصوت حازم كمن يأمرني:

- إذاً افعلي ما تجيدين دوما فعله.

- الانشغال؟

سألتها.. فأومأت برأسها موافقة وعقبت:

- أيامك بالأصل مزدحمة دون الاضطرار للجوء لحيلتك الدائمة بشغلك نفسك، أنت مسافرة خلال أيام وزفاف "منى" قبل سفرك بأيام، وكتابك يجب عليك تسليمه.

- أفكر أن أتراجع عن خطوة النشر.

بدا في صوتها الانزعاج وهي تهتف بي:

- لماذا؟

- لي فترة طويلة لا أكتب لكني كنت أداري هذا، هو السبب، أصابني بالصمت وكأنما فقدت القدرة على الكتابة.

تقاطعني "سلمى" :

- الأمر لا يتعلق به أو برحيله، أنت خائفة من خطوة النشر.

أرد عليها مستنكرة:

- هذا على أساس أنني لم أقم بتلك الخطوة من قبل؟ عمودي الأسبوعي بالجريدة يحمل اسمي وصورتي!

- لكن الكتاب بالنسبة لك أمر مختلف ، هو بطاقة تعريفك بالقراء على مستوى أنضج، وأنت تخشين تلك الخطوة، ولك فترة تحضرين لها ثم تحجمين عنها، في البداية بدأت في كتابة رواية، ثم قررت أنك لن تكتبي الروايات، ثم خلصت إلى أن كتاب الحكايات الذي كنت تحضرين له هو ما تريدين أن تتمي وها أنت ذا لم تتميه.

زفرت بضيق حقيقي وقلت مدافعة عن نفسي:

- الرواية كدت أتمها لكني في ذلك العام أعاقتني متاعبي الصحية وكل ما مررت به وأنت تعرفينه.

قاطعتني:

- مر على هذا خمس أعوام كاملة!

قلت معترضة:

- "سلمى"! أنت تتجنّين عليّ.. تعيشين معي أحداث حياتي وتتهمينني بأني أحجم عن نشر الكتاب عمدا! لماذا؟ أنا أكتب طوال الوقت.. ويُنشر لي.. لكن الكتاب أمره مختلف..

يحتاج مجهودا وتركيزا ووقتا.. أنت تعيشين معي العمر يوما بيوم، وتعرفين كل ما مررت به، وعلى الرغم من هذا تقولين ما تقولين الآن!

- أعيش معك العمر كله.. ولم تتوقفي عن الكتابة طوال الوقت.. تكتبين حتى وأنت لا تكتبين، وترددين منذ سنوات أنك ستنشرين كتابا.. أين هذا الكتاب؟ أنا لا أهاجمك.. أنا أبصّرك.. أنت لم تفقدي قدرتك على الكتابة.. أنت خائفة.. خائفة من خطوة النشر.. خائفة من التقييم، وهذا طبيعي.

قمت ممسكة فنجاني بيدي، ووقفت أنظر إلى الشارع عبر الزجاج الممتد بعرض الحائط أمامي، وشردت للحظات وقلت بهدوء:

- "الخوف"! لي شهور لا أجد حولي سوى الخوف في نفوس.. تهاب الحب والحياة.. كم حاولت تشجيعهم.. فهل مصابة أنا مثلهم دون أن أدري؟ الخوف هو ما جعلني أبتعد عنه وجعله يبتعد عني.

وضعت "سلمى" فنجانها على المنضدة، وفردت ذراعيها وهي تستند أكثر للوراء وهي تقول بتعجب وخيبة رجاء:

- لا أتخيل أنك لا تخبريني أبدا عنه.. وحتى اسمه لا تتفوهين به أبدا!

شردت ودون أن ألتفت إليها قلت:

- اسمه لن يصنع فارقا، وفي كتابتنا نغير الأسماء لكنه أكبر من الكتابة، لم أشعر قبلا بمثل تلك الراحة والسكون.. وكأنني سكنت!

عادت سلمى لأخذ فنجانها، ورشفت رشفة وهي تقول بصوت ساخر:

- السكن بالبيت.

التفت إليها وأنا أرد كالمدافع:

- لا أريد بيتا يا سلمى.. أريد رجلا يكون بيتا.. أنت أكثر من يفهم.. لماذا يشغلنا التملك عندما تهبنا الأيام راحة الرفقة؟ لماذا نتعجل الأمور؟ كم من بيوت تهدّمت وكم من حب خفت وذوى! لا أريد جدرانا خاوية.. بيتي بداخلي وبداخل رجل ما، إن الرفقة كانت هي كل ما أستطيعه، مقايضة الوقت مقابل الوقت، أما التملك فهو شأن آخر ومقايضة لا أستطيع دفع ثمنها حاليا.

- وهل يصلح هو بيتا؟

تنهدت بأسى:

- كلا مع الأسف، هو مسكون بالخوف وعدم الثقة.

- وأنت ألم تخافي من جنونك ونزقك نحوه دون منطق؟!

- خفت أنا وخاف هو، ومن أجل هذا انتهت تلك الحكاية، العشق يتنكر للجبناء وينبذهم بعد الافتتان دون هوادة، لكنه لم يكن افتتانا ولم تكن حكاية، ولا أجد لها توصيفا بعد!

قالت "سلمى" بثقة:

- ستجدين.. لا تقلقي... أعطي نفسك وقتها وركزي الآن في الكتاب، لا وقت لديك الآن.

جلست بجانبها وقلت بجدية:

- كلا.. المسألة ليست في الوقت.. أنا فقدت القدرة على الكتابة من جانب، ومن جانب آخر لا أعرف كيف أحكيه هو.. ربما هناك أشياء أعمق من الحكايات وأكثر غورا من أن تصل الكلمات لوصفها.. لكن قد أتخلص من ذلك الشعور الغريب إن تكلمت!

- حاولي، لماذا ترفضين أن تتكلمي؟! تمردت على الحكاية في البدء بالصمت فتمردت هي عليك في الخاتمة بالعصيان.

شردت وأنا أردد:

- يقتل أمسنا غدنا، ونقبض معه على الخنجر الذي بين يديه لنسدد الطعنات.. من أجل الخوف نضع على المذبح كل الأمنيات والأحلام الطيبة والدعوات التي نزعم أننا لطالما أوقدنا من أجلها الشموع.

ابتسمت "سلمى" وهي تهز رأسها ساخرة:

- وتزعمين أنك فقدت المقدرة على الكتابة؟!

في ضيق حقيقي وتوتر مفاجئ سألتها:

- وما قيمة الكتابة؟ وما جدوى الكلمات؟ الصمت جميل كواحة سلوى وعزاء.

ثم قلت عن قناعة:

- وقد يكون الصمت هو الحكمة التي خلصت إليها بعد شهور وشهور –منذ انفصالي عن زوجي السابق– من التخبط والصخب وقول كلمات لا أدرك أبعادها الحقيقية، والشعور

بمشاعر تبدو أعمق مما هي بالأساس، نعم ربما يكون هو الصمت من أجل الحكمة، والصبر على ما لم أحط به خبرًا.

ردت عليّ:

- لا تبالغي في تحليل الأمور وفلسفتها كعادتك، الصمت يأتينا جميعا في نهاية المطاف بالموت، ولقد وهبك الله القدرة على الكتابة فلماذا تحجمين اليوم وتحتقرين الكلمات؟ هل من أجل رجل؟ أم من أجل خوف طفولي فات وقته وسيفسد أوانك اليوم؟ لقد كبرنا صديقتي وآن لك أن تنضجي، غدا الغربة ستأخذك وتنشغلين عن الكتابة رغما عنك، ولك شهور تعدّين لهذا الكتاب، فلماذا تضيعين مجهودك قبيل التمام؟

نظرت إليها دون إجابة فصمتت هي برهة ثم عقبت:

- على أي حال هي حريتك وتراجعك عن النشر هو اختيارك أنت.

رددت عليها بصوت به أسى:

- أقسم لك .إنني لا أستطيع الكتابة، وهذا أبشع ما حدث لي بحياتي وكل الكلمات تبدو مبتذلة وسخيفة.. والحكايات تملأ رأسي وأوراقي وجدراني.. لكنني أصيغها بطريقة

فارغة، أحتاج إعادة إلى صياغة.. أحتاج إلى شيء خلاق.. أنا متعبة للغاية. الصمت لعنة الحكاء وخوفه الأكبر، ليتها تكون مرحلة وستمر.

سألتني:

- أين هو؟
- لا أعرف.
- كيف تعرفين أنه رحل نهائيا تلك المرة؟
- لا أعرف.

بدا في عينيها تكذيب لي لم ألمها عليه فقلت لها:

- ما العجب في أن أحب رجلا لا أعرف كيف أحكي حكايته؟ أليست تلك هي سمتي الغالبة، أني دوما لا أعرف، دوما أتساءل كي أتعلم أكثر.. وأضع الأمر وضده نصب عيني مؤمنة بنسبية المنظور، وموقنة بأن التأويل هو المعضلة الحقيقية، والغيب مخفي في صفحة المقادير.

إنني لا أعرف في تلك اللحظة سوى أنه قد اختفى، وأنني لا أستطيع أن اكتب، وأن الوقت قد داهمني، وأن أمامي الكثير كي أنجزه قبل الرحيل.

(٣)

غادرت سلمى وأنا أكثر ضيقا، فكم هو عبثيٌّ وضعي وما كنت أبدو عليه في تلك اللحظة، رحل عني رجل كان يجب عليّ كي أستبقيه أن أحكي له حكايتي ولم أفعل، وبعد رحيله يجب عليّ كي أُفهم المحيطين بي لماذا لم أخبرهم عنه قبلا، أن أحكي لهم حكايتنا وهو ما لم أفعل أيضا!

ولكي أفسّر سبب صمتي يجب أن أتكلم؛ فالصمت لغز والسؤال دوما منطوق، كيف ألوم من حولي ولماذا ألومه هو؟!

أمسكت هاتفي وكدت أطلب رقمه ثانية، لكنني تراجعت، زفرت في ضيق لعلمي أنه لا سبيل إليه، مقر عمله غيّره مؤخرا مضطرا، بحث عن مكتب آخر بإيجار أقل بعد توقف عمله نتيجة لاضطراب الأحداث، ولم أسأله أنا عن عنوانه الجديد!

أرجعت رأسي للوراء بينما سائق سيارة الأجرة الذي لم يتوقف عن الكلام منذ ركبت يشكو لي حاله وأحوال البلد، بدا صوته بعيدا جدا، وكأنه يأتي من مكان سحيق، بينما سرحت أنا في النيل الممتد عن يميني، وفي زحام ليلة نهاية الأسبوع الخانق،

وفي كلام السائق الذي يصلني شذره عن مصر بعد الثورة، والأزمة الاقتصادية التي أثرت على الجميع بما فيهم أنا.

لم يفد وضعي كثيرا قيام ثورة أدت إلى بحث مصر عن الاستقرار اقتصاديا مع انهيار البورصة واعلان البنك المركزي عما يقلق ، والأجانب يغادرون البلد والاستثمارات تتجمد ، والأجور تخفض والعمالة تسرح.

لمسنا الوضع في العام والخاص ، فمثلا " سلمى" وشقيقي خسرا عملهما معا في يوم واحد، والسبب كان تقليل النفقات" من أجل الظروف الاقتصادية للبلد.

بينما كنت أبحث أنا عن عمل، وكل ما أملكه هو سيرة ذاتية فقيرة، وتوقّف عن الحياة العملية لسنتين كاملتين اضطرلي لقضاء شهور بالتدريب قبل أن أبدأ البحث عن عمل في نهاية ديسمبر. يفصل بيني وبين عام تخرجي سنوات، تجعلني مرشحة أقلّ تفضيلا مقارنة بالشباب حديثي التخرج، بما يُتوسم فيهم من طاقة ونشاط وصغر سن وقلة خبرة تجعل توقعاتهم للمرتب أقل.

كان موقفي صعبا وإن لم يكن مستحيلا، لكن الثورة قامت وجمّدت مصر بأكملها حتى تنحى مبارك نهائيا، ولم تعد الأمور لسابق عهدها بعد.

ما حمدت الله عليه هو عدم مسئوليتي تجاه أحد فلا أبناء ولا هم لي سوى نفسي التي يطيب للآخرين حمل مسئوليتها وأولهم أبي ، لكنني كنت أبحث عن الاستقلال الحتمي، وبناء هيكل لحياة جديدة ، بعدما تبدل حال حياتي تماما بعد الطلاق.

لذا عندما أتتني فرصة العمل خارج مصر، قبلتها دون تردد ، السفر بدا حلا مثاليا ، يوفر ابتعادا عن الماضي وذكرياته والمجتمع وضغطه ومصر وظروفها الخانقة مع إلحاح احتياجي للعمل وقبل كل هذا عن الرجل الذي لا أخبر اسمه، فقد كان الرحيل هو بداية حكايتي معه قبل أن يكون نهايتها ، كان هو الكلمة الأولى والعقد المبرم.

وكم تبدو حكايتي معه غير منطقية. لكن ما الذي بدا منطقيا في تلك الأيام التي عاصرتها أنا وجيلي والأجيال السابقة واللاحقة لنا؟

مصر قامت فيها ثورة.. يا للمعجزة!

من كان ليصدق؟ أن يتنحى مبارك ولا يتولى جمال! جيلنا الذي وُصم بما وُصم به لسنوات.. خرج عن المتوقع وشهد ثورة أسقطت نظاما رابضا منذ عقود.

في راديو التاكسي أغنية وطنية عن شهداء ٢٥ يناير، ولم يزل السائق يتحدث لاعنا في الشباب والثورة والاعتصام والجُمَع التي صرنا لتفنن في مسمياتها.

- عيال لا وراها شغلة ولا مشغلة!

قالها السائق بحنق، بينما سارحة أنا في أفكاري لا أرد عليه.

بينما أفكر أنا، في المطالبة بالقصاص التي أرادها أولئك العيال في تلك الجمعة، وما صار يتردد أن الثورة تضيع ودم الشهداء قد أهدر.

يرى البعض أنها ليست بثورة.. مجرد فورة غضب لن تفلح في تغيير فساد ضرب للجذور منذ سنوات.. بين المتشائمين والمفرطين في التفاؤل نقرأ ونسمع آراءً متباينة.

يرونها كلقيط بلا أب شرعي؛ لأنه لا قائد لها.. ينسبها كل لنفسه ويفسدها كل بظنّه.

أراها أنا منحى آخر للحكاية.. معجزة إن صح التعبير، وأنتظر أن يعطيني الله العمر كي أقرأ عنها فيما بعد.

" فيما بعد.. "

أفكر في التعبير وأفكر في الغد الذي لا نملكه..

ظل "هو" يسألني عن الغد مرددا: "ماذا بعد؟" وكنت أود أن أقول له: "من يملك "بعد" أيها الأحمق؟"، لكني وكعادتي معه لم أقل شيئا.

تنهدت ناظرة للزحام حولي.. لا أحد يملك "بعد".. بلد بأكملها تغيّر حالها في منعطف قدري غير متوقع.. رغم توهم الحاكم بتملكه المطلق وإيمان المحكوم بهذا التملك تماما.. أتت الأيام بما لا نعرف له توصيفا أو يستقر أثره إلى الحين. فلم نزل نعاني اضطراب ما بعد التغيير الجذري.

قبل الثورة كنت أكتب في النقد والأدب، وبعد الثورة حاولت مرغمة أن أكتب مقالات سياسية، وغيّرت توجه قراءاتي، ووجدت صعوبة في ملاحقة الأحداث بتسارعها وضبابيتها.

رنّ هاتفي وأنا سارحة بأفكاري، وكان السائق قد لاحظ شرودي عنه فصمت عن الكلام، بحثت عن الهاتف بلهفة في زحام

حاجياتي الملقاة بحقيبة يدي الكبيرة، رغم يقيني داخليا أنه ليس "هو"، لكنه التعلق بالأمل الضعيف وخداعه، والإحباط الذي يصيبنا لحظة ضياعه منا.

اسم "كوثر" الذي ظهر لي مضيئا على الشاشة ذكّرني بميعادنا الذي نسيته تماما.. نظرت لساعتي وأنا أزفر في ضيق..

أجبتها مبادرة بالاعتذار، قلت لها إنني آتية بالطريق، لكن الزحام هو ما عطّلني، أغلقت معها وقلت للسائق برجاء متأدب:

- سنذهب للتحرير من فضلك، بطريقنا على أي حال.

زفر وهو يغمغم بالموافقة، وزفرت أنا في ضيق، فآخر ما كنت أحتاجه هو رؤية أي أحد في ذلك اليوم، لكن لا بد، يجب أنا أراها قبل سفري، يكفي حرصها على رؤيتي وتلك الكتب التي اشترتها لي خصيصا كهدية وداع، كتب قديمة نادرة بذلت جهد كي تحصل عليها خصيصا من أجلي، كعادتها بكرمها ولفتاتها اللطيفة.

غاب عن ذهني تماما ميعادنا المحدد منذ أيام، نظرت إلى عقارب الساعة من جديد.. وأرجعت رأسي للوراء مغمضة عيني

محاولة الاسترخاء، وباغتتني دموع هادئة جرت على وجنتي في إرغام وصمت.

***

(٤)

في ذلك الكافيه الذي يختلط لون " اللوجو " الخاص به بين البني والبرتقالي.. جلست أمام "كوثر" صامتة، بينما تنتظر هي لصمتي أن ينتهي.. بينما سارحة أنا في أفكار فارغة هاربة مما أشعر به، متأملة ما حولي متعجبة من عدم حبي للون البرتقالي، رغم أنه لون يخبر عن رائحة زهر البرتقال والصباحات المشرقة، وتفضيلي أكثر للون البني، لون الشيكولاتة التي أدمنها والخشب الذي يشعرني بالدفء.

- لماذا لا يعجبني اللونان معا؟

أسأل "كوثر" فجأة وأنا أشير للوجو المرسوم على القائمة أمامنا، قاطعة الصمت الكئيب المشبع بطعم دموع لم تجفّ بعد، بالتفوّه بخواطري المشتتة المتلاحقة بصوت عالٍ..

تنظر لي بحيرة وقليل من دهشة:

- لا أعرف.

ثم تعقب بجدية:

- ما بك؟

بسرعة أجيبها:

- لا شيء.

ثم هاربة من عينيها المكذّبة أمسك بالكتب التي لفّت على شكل هدية، وأقول لها بصوت مرح:

-شكل اللفة جميل جدا، لن أفتحها إلا بعد سفري، سأتركها هكذا لتكون تلك أول هدية أفضّها هناك.

تبتسم هي، وتشعل سيجارة وهي تحاصرني بالكلام:

- هناك خطب ما، لكن لن ألح عليك بالسؤال، أنا أرى في قرار سفرك خطأ كبيرا، قلت لك اصبري، لولا الأحداث لوفرت لك عملا منذ وقت، بعد استقرار الأمور بإمكاني أن أوفر لك فرصة عمل تغنيك عن البعد.

"كوثر" من الممكن أن نطلق عليها سيدة أعمال، ورثت عن أسرتها مالا واسما تجاريا معروفا، واستطاعت بذكائها وجهدها تنمية ما أتاها دون مجهود.

كنت أعرف صدق وعودها، فلها دائرة معارف لا يُستهان بها، وعلى الرغم من أنه بعد الثورة صار كل صاحب جاه ونفوذ محطّ شبهة، وصارت الوساطة غير مقبولة بعد نزع كثيرين من على كراسيهم، إلا أنها كانت محقة؛ فبعد استقرار الأوضاع سيحدث

ما يشبه الفلترة، وقطعا سيبقى على الساحة أسماء كانت في الأصل على السطح نائية بنفسها عن حضيض الفساد، لكني هربت من كلامها بقلب الحديث عنها، وتطلعت إليها وأنا أسألها:

- دعك مني أنا، فات أوان الحديث عن السفر؛ فلقد تقرر الأمر بالفعل، إنني قلقة عليك أنت لم تزلي تفقدين الوزن بصورة ملحوظة، "كوثر" هل تنامين جيدا؟

نفثت دخان سيجارتها بعصبية، وهزت رأسها بالنفي، ونظرت أنا إليها متطلعة ومبصرة، ما جعلني أكمل حديثي لا هربا من الحديث عني، ولكن قلقا حقيقيا عليها:

- أنت تكابرين، اصدقيني القول، ألم تزلي في فيلّتك بالمنصورية معتزلة، أم عدت إلى بيتك؟

نظرت لي بعيونها السوداء الواسعة التي بدت لي جاحظة بعدما فقدت كل هذا الوزن، وتغيرت رسمة وجهها الخمري المستدير، وتشرد دون إجابة..

تكبرني "كوثر" في العمر بما يقرب من العقدين ونتوافق كصديقتين بشكل جميل ومريح وكم ارتحت أنا مع من يكبرنني

سنا كأصدقاء، عرفتها أثناء زواجي السابق عن طريق دائرة اجتماعية عائلية وتوافقت أرواحنا وحدث بيننا تقارب حقيقي لم ينقطع بعد انفصالي، بل على العكس زاد، لم أشعر أبدا بالسنوات التي تفصلنا لكن في تلك اللحظة عندما نظرت إلى وجهها مبصرة خدودها التي تهدلت، والخطوط الرفيعة حول الشفاه، والأرق الذي أذبل العينين وأحاطها بهالات سوداء.. بدا عمرها جليا بعدما ترك الأسى بصْمته عليه.

ضايقتها نظرات عيني، وأشاحت بوجهها عني مشيرة للنادل، كي تتعجل طلبها لفنجان آخر من القهوة، وقلت لها أنا:

- قهوة وسجائر وعدم أكل ونوم، تذكريني بنفسي أيام اكتئابي.

ثم أعقّب:

- سأسافر وأنا قلقة عليك، رحم الله أمك، لا يرضيها ما تفعلينه بنفسك منذ رحيلها.

ردت هي:

- موتها لم يكن هو فقط سبب ما أنا فيه، وتعرفين أنت ما أعني.

ثم صمتت للحظة عندما أتى النادل لوضع القهوة، وبعد انصرافه أكملت:

- الخذلان صعب.. صعب للغاية.. والثقة عندما نفتقدها يكون استردادها صعبا.. أسوأ ما يمكن عيشه أن تعرفي أنك تعيشين في الدنيا بلا ظهر.. تتكومين على نفسك لحماية بطنك من الضربات المتتالية، وفقط تتمنين هذا الذي يأخذ بيدك ليقيمك ويسند ظهرك بيده الأخرى.. أشعر بوحدة قاتلة، ولا أثق به أبدا.. بل لا أثق بأحد.. لم يعد لي أحد.

تيتمت "كوثر" لأبيها وهي صغيرة.. يترك بنا اليتم وصمة ألم وانعدام ثقة.. فالموت يصدمنا كبارا فما بالك ونحن صغار لا نفهم للفقد معنى ولا نشعر تجاهه سوى بالحنق وعدم الفهم والألم.

اليتيم لا يثق في وعد بدفء لم يعرفه.. لكنها وثقت بزوجها؛ لأنها أرادت أن تثق.. رغم كونه أقل منها ماديا واجتماعيا، اختارته هو دون الجميع ليكون رفيق عمرها.. المال والنجاح لا يغني المرأة عن لحظة تسند فيها رأسها على صدر رجل كي تشعر بالأمان.. خذلها هو مرتين.. مرة من أجل المادة عندما

تصرف في أموالها دون علمها بحجة الحق المكتسب.. ومرة أخرى أثناء مرضها عندما لم يقف بجانبها وأظهر مدى عمق أنانيته، ولم يكن مرضا عاديا، كان سرطان الثدي الذي نخشاه جميعا كنساء، ويترك فينا ما يترك من ندبات نفسية، خلافاتهما تفاقمت وقتها وطلبت الطلاق ثم تراجعت عنه من أجل بناتها. لم نكد نفرح بنعمة شفائها حتى عقب هذا وفاة أمها منذ أشهر معدودة.. اليوم هي تعاني من اكتئاب مرضي.. هذا أمر مؤكد.. مهزومة ومكسورة.. تزداد نحولا يوما بعد يوم، وتمكّن منها اليأس تماما.

أكملت هي شكواها إلي:

- وما يزيد من حزني تلك الأيام هي "حلا"، البنت تدفعني للجنون! ترفض العرسان بشكل قاطع، ومصممة على السفر والغربة عني للدراسة، لم أعد أفهمها، منه لله ذلك الذي كسر قلبها.

سألتها:

- هل تعتقدين أنها لم تزل متعلقة بخطيبها السابق، بعد أكثر من ثلاث أعوام منذ انفصالهما؟!، لا أعتقد أن يكون هذا

هو السبب، قد يكون سبب رفضها أنها لم تقابل من تتحرك مشاعرها تجاهه بعد.

ردت هي بحدة وحنق أمّ:

- لا، البنت داخلها انكسر وأنا أشعر بها، وأكاد أجن!، هي لا تكلمني تلك الأيام؛ لرفضي القاطع لسفرها، وهي ماضية في إجراءاته متجاهلة رفضي، وأبوها سلبي كعادته وكأنما يتعمد إغاظتي، هل ينقصني ذلك أيضا؟! كنت سأطلب منك محادثتها، لكنك مثلها تهربين بالسفر، فكيف ستقنعينها بعكس ما تفعلين أنت؟

ابتسمت أنا وأردّ عليها:

- سأكلمها في كل الأحوال، فأنا سأفتقدها ويجب أن أكلمها قبل سفري على أية حال، تعرفين كم أحب بناتك، لكل واحدة من الثلاثة مكان بقلبي.

تنهدت هي وتقول:

- هنّ قلبي أنا.

انحنيت على المنضدة التي بيننا مقتربة منها، وقلت بجدية عائدة للحديث عنها:

- عزيزتي أنا خبرت الاكتئاب وعشته وأنقذتني من بين براثنه رحمة خالقك، لا تنسي نفسك يا "كوثر"، يلزمك "أنت" كي تستطيعين العطاء، أنت زوجة وأمّ، وقبل كل هذا امرأة من حقها أن تعيش برضا وتستشعر قيمة ما عندها.

ثم ابتسمت وأنا أتذكر:

- جدتي رحمة الله عليها كانت تقول ، أن من لا يعرف كيف يدلل نفسه لا يجد من يدلله.

قالت لي:

- ربما هذا هو سرك.. أنك تعرفين كيف تحبين نفسك وتدللينها، ومن أجل هذا لم تطل معك حالة الاكتئاب.

أجبتها:

- مهما أحببت نفسك يلزمك حب الآخر واليد التي تمتد إليك لتساعدك على النهوض.

ثم أزحت فنجاني الفارغ جانبا، وقلت بتصميم:

- يجب أن تطلبي المساعدة وتساعدي نفسك.. الاكتئاب مرض حقيقي.. صدقيني.. احمدي الله أنك تعيشين

في بيئة تتفهم معنى هذه الكلمة.. أنا جئت من مكان يَصِم من يتردد على الطبيب النفسي بالجنون.. في واقع الأمر الجنون هو المرادف الوحيد هناك لكثير من الكلمات.

سألتني:

- تريدينني أن أذهب لمعالج مثلا؟

أجبتها:

- ما المانع إن لزم الأمر؟ لكن لا شرط، افعلي ما ترين فيه مخرجا لك ومساعدا لتخطّيك ما فات، أنت لم تتخطّي مشاكلك مع زوجك ولا محنة مرضك، ومنذ موت أمك لا تخلعين السواد، وتبدّل حالك، إما أن تساعدي نفسك أو تكفّي عن العناد وتطلبي المساعدة.

قالت لي بلهجة بها تندّر على حالها:

- أنت شفيت من الاكتئاب عقب طلاقك، فماذا أفعل أنا؟

رددت عليها:

- أنت لا تريدين الطلاق يا "كوثر" وحكايتي كانت مختلفة، لقد اخترت أنت زوجك من جديد منذ فترة، ولقد

تكلمنا أنا وأنت سابقا في هذا الأمر، ما يلزمك هو تخطي ما مضى، مشاعرك السلبية وتعبك يعيقانك عن الاستمرار، من أجل بناتك يجب أن يفيق كلاكما مما أنتما فيه، وما أدراك ألا يكون أحد دوافع "حلا" للسفر وضعك أنت وأبيها؟

نظرت لي ولم تردّ فعقّبْت:

- ساكلم "حلا" كي تصالحك، لكن عديني بأن تحاولي أن تكوني أفضل حالا، وتخلعي الأسود وتعودين لسابق عهدك.

غمغمت بموافقة غير مضمونة، وامتد بنا الحديث لساعات كعادتنا، وعدت أنا للبيت متأخرة ومجهدة للغاية، عارفة أني سأنام عددا محدودا من الساعات؛ ففي الباكر سيأتي والداي مع "منى".

في السرير سرحت في الكثير، منتظرة للنوم أن يخلصني من إجهادي، كعادتي قبل النوم حاولت القراءة، ففشلت أن أركّز.

كانت الأفكار تدور برأسي، فكرت في الثقة التي فقدتها "كوثر" بزوجها وبنفسها وقدراتها التي كانت مضرب الأمثال.

فكرت فيه "هو"، ذلك الذي رفضت أن أخبر "كوثر" عنه، وأنه السبب في تغيّري منذ وقت وتألمي يومها، فكرت فيه وفي عدم ثقته في أي شيء وغيابه الذي تناسيته في جلستي معها.

لم أحظ بثقته أبدا كي أفتقدها..

إننا لا نخسر شيئا لم يكن ملكنا بالأساس.

ردّدت لنفسي تلك العبارة وحدي وبصوت مسموع.

لم أمتلكه أبدا، ولم أُرِدِ امتلاكه، ولا اكتسبت ثقته التي زعم أنه لا أحد قادر على اكتسابها، لم أملك شيئا معه سوى نفسي ونفسي لم تزل معي.

- لم أخسر شيئا.

هذا ما ردّدته لنفسي قبل النوم متمنية أن أصدق، لكني لم أنم ليلتها إلا لماما.

* * *

(٥)

عندما تحدد ميعاد سفري ، بكرت " منى " شقيقتي ميعاد فرحها ، واختارت هي وخطيبها مكان العرس بالقاهرة لأنها ستصير مكان إقامتهم ولأن خطيبها مقيما بها.

بصخب الفرح جاءتني "منى" مع أبي وأمي ذلك الصباح الذي تلي أولى ليالي أرقي ولم تزد القهوة التي شربتها سوى توتري

- ألم ترتدي ملابسك بعد ؟

سألتني مستنكرة وهي تضع الحقائب وتقبلني في نفس اللحظة.

ثم وهي متوجهة لغرفتها سألتني عن شقيقنا الذي يقيم معي معظم الوقت:

- هل "عبد الله" هنا ؟

أجبتها بالنفي، وأنا أقبّل أمي وأبي، وتبعتها لغرفتها وعلى وجهي ابتسامة واسعة، إن استخدمت كلمتين لوصف "مني" سيكون ما أكتب هو "الوجه الصبوح"، هي جميلة منذ كانت طفلة، لها ابتسامة مشرقة وعينين واسعتين وملامح متّسقة، وقد كنت أعجب دوما من قولهم إن بيننا تشابها؛ لأنك إن دققت في ملامحنا لوجدتنا مختلفتين تمام الاختلاف، هي تصغرلي عمرا

بعِقد كامل وتفوقني طولا، ورثت عن أمي بِنْيَتها وورثت أنا عن أهل أبي بِنْيَتهم، وجهها مستدير وشفتاها مكتنزتان ووجهي طولي وشفتاي صغيرتان، أنفها دقيق مرسوم وأنفي يميل للطول، وعلى الرغم من هذا يصر الجميع أنها تشبهني ! لنا نفس لمعة العين والابتسامة وشيء واحد مشترك بيننا، ورثناه عن أمنا ، هو تلك النغزة الغائرة التي تزين الذقن وإن بدت في ذقني أنا أكثر عمقا لنحافتي ، أشعرها ابنتي وصديقتي معا لكني لم أحك لها عن " الرجل الذي لا اسم له "، كانت هي تعيش مع خطيبها الحب الغض ، بتفاصيله المبهجة ومخاوفه الساذجة ، وكنت أنا لا أجد لما أعيش توصيفا ، وكيف أحكي حكاية تنكر لها أصحابها أو أنجح في إقناع الآخرين بما رأيته في رجل لم يره حتى هو في نفسه ، كانت الكلمات الوحيدة المقنعة التي قد أذكرها عنا ، هي أن كل منا تقابل في وقت بحياته ، حيث الثوابت قد اهتزت والإيمان بالشكل التقليدي للعلاقة بين الرجل والمرأة قد نقض ، كان عند كل منا قناعة أن العلاقات ليست كما ظننا وأن الصدق الذي احتجناه لم يكن فيما عرفنا بل كان شيئا لم نعرفه بعد ، ولم يدر أينا ، هل وجدنا الصدق عندما قابل كل منا الآخر

وضيعه لأن المخاوف كانت أقوى ؟ أم أنها كانت مجرد خطى غير لازمة لكنها مُلزمة على طريق حتمي.

كانت " منى" تتمنى لي الزواج ثانية ، كي العم بالحب والاستقرار الذي جبلت عليه الفطرة ، ، عارضتني في فكرة السفر وخشيت من إصراري على رفض كل من تقدم لخطبتي وفتوري ناحية كل من أقابل ، كانت تسألني إن كان هناك شخص ما بحياتي فأنفي ، متجنبة أن أشرح لها وأجعلها تتخطى السنوات وتدرك ما يفعله بنا الألم، رغم أني اليوم أدرك أنها كانت ستتفهم ، شقيقتي الصغرى التي كنت أحاول احتضانها وحملها منذ كانت رضيعة ، هي من نمت بحضنها يوم طلاقي ، وبدوت بضآلة جسدي يومها كأني أنا الصغرى وبدت هي بحنانها وعقلها الذي يفوق سنها كأنها أم لي ، لم أصارحها يومها بألمي الذي بدا علي رغم اجتهادي لإخفائه، فقط انغمست معها في اللحظات المبهجة بصدق.

مرّ معظم اليوم بين أتيليه وبروفة فستان زفاف بدت فيه صغيرتي كأجمل ما يكون.

ولم تذكّرني أي من تلك الأشياء به؛ لأنه لم يكن من أجل تلك الأشياء، الفرح كان في رؤياه، والسكن كان في تلك السويعات القليلة التي خطفتها من الزمن كي أكون معه.

لكنه قال لي أن هذا وهم، وكان يجب عليّ تصديقه؛ لأن منطق كلماته أقوى من لا منطقية ما حدث، ولأنه لم يكن هناك وقت للألم.

لقد قال لي يوما أني لا أحبه وأني أتوهم هذا لاضطراب أو احتياج ، ثم قال لي في يوم آخر أني أحبه وأني حمقاء ومجنونة أن فعلت ، قال لي أنه يريدني بجانبه وقد كنت فعلا بجانبه ، ثم قال لي أنه لا يستطيع تحمل تواجدي الدائم في حياته ورحل تكرارا فصمت.

قال كل شيء ، في يوم كان يقرر أني حبيبته التي سيطلق لنفسه العنان معها ، وفي اليوم التالي كنت أنا التي تصيبه بالجنون لأنه يعرف كل تفاصيل حياتها الصغيرة ! قال لي أني متعبة ومريحة ، ذكية وغبية ، منفرة ومغوية بشكل لا يقاوم

قال كل شيء من الممكن أن يقال، وقد كنت صامتة عن نفي مزاعمه وحكيت له كل الأشياء لكني لم أحك له ما أشعر حقا

ولم أدافع عن نفسي أمام شكه ولا وعدته بما يطمئنه، فبدوت غير منطقية ، ولم يكن المنطق هو غايتي ، فقد باغتني كون كل شيء سريعا وغير مبرر ، فبدا لي الصمت هو الحل الأمثل ، وانتظرت الملل ، ذلك الذي يتسرب إلينا ويقتل كل الأشياء في لحظة قنوط تخمد كل الوهج. لكن الملل لم يأت، فكان الرحيل هو المخرج ، ومنذ البداية كان الرحيل هو الاتفاق والعقد المبرم ، ولم يتنبه كلانا أنه كان يجب أن يكون هناك مكوث كي يكون رحيلا

و قد كان هذا هو ما قاومناه بكل طاقتنا ، المكوث، ففي الأصل كان كلانا مرتحلا.

ولأن الشك كان هو ما أفسد يقين تلك الحكاية، ولأن الشك كان هو ما يفسد كل الحياة؛ لأنه نقيض الإيمان والثبات، فلقد ردّدت لنفسي مزاعم شكّه المتعددة، كمن يتشبث بالإلحاد لأنه مهربه من اليقين بوجود جهنم.

كنت يومها أكرر لنفسي وبقوة كل ما يجعلني لا أستسلم للألم، كنت أرتّل بداخلي أقاويله، ولقد قال الكثير، ويومها كان قد اختفى، ولا مزيد من الأقاويل.

لكن عيني كانت معلّقة على هاتفي معظم الوقت، أخرجه من حقيبتي كل فترة؛ لأتأكد من أنه لم يرنّ دون أن أسمعه، وكلما رنّ اضطرب قلبي وأنا أنظر للاسم، نعم، كنت أنتظر مكالمة منه، عودة أخيرة قبل سفري، لم أتصور أنه سيتركني أسافر دون أن نقول كلمات أخيرة، دون أن أعرف أني قد أعود يوما لأجده، لكنه النمط الذي جبلت عليه معه، هو الحاضر الغائب، الموجود بعيدا عني والراسخ في وجداني.

كنت طوال اليوم مع " مني" بنصف وجود وما فعلناه يومها لم يكن سوى الخطوات النهائية نحو إتمام كل شيء فترتيباتنا لكل شيء بدأت في مارس، عقب تنحي " مبارك" وعودة الحياة لطبيعتها رويدا .

لكن الوقت المهدر في التنقل بين مكان وآخر، بالإضافة إلى جوّ شهر يوليو الخانق بالقاهرة، جعل من تلك الأشياء البسيطة التي قضيناها في ذلك اليوم، مهام تصلح ليوم بأكمله.

شعرت بالخيبة أنه لم يكلمني رغم توقعي لهذا ولم أغضب منه لأنه كان قد حذرني قبلا، أنه قد يخذلني أو يرحل عني ويتركني على قارعة الطريق بغتة، وقد سألني وقتها إن كنت سألومه ؟ في

البداية لم أشأ إجابته؛ لأنه لا يصدّق أيا من إجاباتي، ألحّ عليّ في السؤال فأقسمت له إني لن ألومه لأني أؤمن أنه لا جدوى من الملامة عند الرحيل، لكنه صمم أني سأفعل ولذلك يجب عليه أن يرحل!

الحياة رجل وامرأة وترحال.

وكل الحكايات تخبر عن الحب، وما البوح إلا أنين افتقاده، قد نتكبر عليه ونتشغل بما نملك عنه، ونتفاخر بأموالنا ومناصبنا وعلمنا ونجاحاتنا المختلفة، لكننا في النهاية نغترب ونئن إن افتقدنا حب الله، الوطن، الأهل، الأصدقاء أو الحبيب.

هل أحبني هو؟ سؤال ظل معلقا بقلبي-لم يتسلل حتى لأفكاري، قابلته في وقت كنت قد زهدت كل شيء ولم أعد أثق في الوعود، وعود الرجال للنساء بالإخلاص الذي لا يتحقق ووعود النساء للرجال بالأبدية التي لا تكون.

لم يكن بيننا وعد، والعهد كان إجبار روح، تجذبك بسر لا يعلمه سوى خالقها، لكننا نقاوم حتى تلك الأسرار؛ لأن ما نمسكه بأيدينا أصدق بالنسبة إلينا مما نشعر به.

ويوم نبصر ما أمسكنا نشعر بالخواء!

(٦)

في شُرْفته الجميلة المليئة بالزرع الأخضر والمطلّة على النيل جلست أنا و"محمد" صباحا أمامنا إفطار شهي حضّره لي خصيصا، وقهوة يدمن تناولها كلانا، لم أتناول شيئا فشهيتي كانت منعدمة للأكل في تلك الأيام، فقط تناولت القهوة، وقلّبت في الجرائد اليومية في صمت ثم قلت له شاكية:

- لا أعرف ماذا أكتب في عمودي هذا الأسبوع.

ردّ عليّ:

- الأحداث تطرح عدة موضوعات مختلفة للكتابة.

في حزن قلت:

- لا أملك ولو فكرة واحدة.

نظر لي بحنان أبوي وابتسامة هادئة، فبادلته بابتسامتي الباهتة. "محمد" الأرمل الذي يكبر أبي بخمس سنوات ويعتبرني ابنة له، والذي عرفته عن طريق الجمعية الخيرية التي اشتركت بها منذ سنوات، ومشترك بها هو الآخر يهب من وقت وحدته ومجهوده وماله لآخرين يحتاجون عطاءه.

كنت أمرّ عليه كلما ذهبت إلى "صفاء"، جارته وهي صديقة قديمة وأحد مؤسسي تلك الجمعية الخيرية التي نشترك لها .

كم تكلمنا أنا وهو عن الحياة ، الحب والعلاقات، كنا أنا وشقيقي نؤنس وحدته ،فهو وحيد بعد سفر ابنته مع زوجها للسعودية وهجرة ابنه لأمريكا.

كم حكى لي مرارا عن "سيلفي"، أرملته ،عن قصة حبهما وزواجهما وطلاقهما وعودتهما من جديد عند مرضها.

" محمد" مرح وخفيف الظل ومثقف، بعينيه العسليتين الجذابتين بريق لم تُخمد لمعته الأيام، في ذلك اليوم وبعد سنوات من معرفته بي، عندما لمحني فهم ألمي، لم أحتج أن أقول له الكثير؛ فقد كنت واثقة من أنه سيفهم ما لم أقل أكثر مما استطعت البوح به، للخبرة ميزة القدرة على فك طلاسم تلك الحكايات التي لم تتضح تفاصيلها بعد.

قال لي معلقا على النذر اليسير الذي أشرت به لما يؤرقني:

- ابحثي عنه يا ابنتي، لا تضيعي شبابك في الحماقات.

سألته:

- ولماذا أبحث عنه، إن كان كلانا قد اتفق منذ البداية؟

سألني هو متعجبا:

- ولماذا وافقت على هذا الاتفاق؟ ولماذا وافقته على كل ما قال؟

قلت له بحدة من يجاهد لدفع ثقل عن قلبه:

- لأنه لا جدوى من الكلمات معه، المريض بالشك كالكافر.. يسعى بكل حواسه لنقض اليقين.. لا يجدي معه صدقك أو إخلاصك ومهما أقسمت.. بماذا تقسم للكافر بك؟

ثم عقبت:

- وأنا الأخرى لم أكن أعرف بماذا أؤمن، أي عبث هذا وأي حماقة! أن أمضي مدافعة عن أي احتمال مفترض بأبدية لم أعد أثق في وجودها كي أرجوها! والحب لا يملك إثباته أو نفيه سوى الوقت، وأنا لا أملك الوقت ولا يملكه أحدنا أبدا، وظل الوقت هو معضلتنا، يخشاه هو كيلا يتورط، وأنتظره أنا أن يحررني من الألم، ولقد تحايلنا على الوقت، وكان هذا قمة الغباء فإنه هو السيد، لا نغلبه ولا نملكه، وقد كان الأحرى بنا أن نعيشه.

ردّد ثانية:

- الأمر لم يزل بيدك.

نفيت أنا:

- لا، لا شيء بيدي، أنا أكثر منه شكا والخشية تملكني، وهو من أجل غروره الذكوري توهّم العكس، ولم أشأ أنا أن أصدمه، لأني في لحظة جنون لا أدري سببها لم أشعر سوى أني امرأته، والمرأة لا تجرح رجلها.

شرد هو للحظة مفكرا ثم قال لي:

- ربما هو رجل لا يعرف الإخلاص، اسأليني أنا عن الرجل عندما يخون، يصيبه الشك في كل من حوله، إننا مهما بلغ حبنا وثقتنا بآخر تظل أنفسنا هي الأقرب إلينا وهي مرجعيتنا، غالبا ما نتوسم في الآخرين ما نعاني منه من نقائص وأسوأ.

قلت له بثقة:

- كلا، هو ليس بخائن وإن بدا العكس، وسامحني إن قلت لك إن الخيانة كذب وجبن، وهو رجل صادق لدرجة الوقاحة، في ظني هو يحكم على نفسه بالوحدة من أجل ضميره الحي، ولم أقابل في حياتي من هو أصدق منه وربما لأجل هذا

انجرفت نحوه، شكّه لا أعرف له سببا لأني صدقا لا أعرف حكايته، ولم ألمه عليه لأني رأيت منطقية ظنونه، لكني لم أحاول نفيها.

سألني:

- ترينه بعين مشاعرك؟

فأجبته:

-أرى عيوبه قبل محاسنه، وإن كان الحب يعمي كما يقولون فأنا لم أحبه قط؛ لأني لم أفعل شيئا سوى أني أبصرته رغم أني لم أعرف عنه الكثير.

ثم همست بائحة بسؤالي:

- أتظن أنه قد أحبني؟ أتظنه قد يعود؟

ردّ هو متحسسا الكلمات مجيبا على السؤال بسؤال:

- ماذا ترين أنت؟ حدس المرأة برجلها أصدق، المرأة دوما تعرف.

قلت مجيبة في حيادية:

- دفعته الوحدة تجاهي دفعا، وعلق لحين كما علقت أنا بتلك الراحة غير المبررة، لكن الحب أمر آخر، الحب كلمة كبيرة، جعلناها نحن مستباحة وفضفاضة وغير مصدقة من كثرة ما كررناها دون إدراك، نقولها كثيرا ونعيشها قليلا، وأحيانا نعيشها دون أن ندركها.

قال محمد:

- كل شيء نسبي، ويظل الزمن هو ما يثبت حتمية الأشياء.

شعرت بالاختناق فقلت مغيرة لوجهة الحديث:

- "عبد الله" سيرتب معك كيفية إيصال المال لك كل شهر، من أجل تلك الأسرة التي كفلناها أنا وأنت بعيدا عن نطاق الجمعية.

صمت "محمد" لبرهة كالمحتار ثم قال لي مفاجئا:

- أنا مسافر آخر هذا العام.

- إلى أين؟

- لابني بأمريكا.

سألته:

- و"مديحة"؟

قال بأسى :

- أولادها رافضون تماما لزواجها ، غرض زواجنا الرفقة المريحة، وهم ينغصون عليها معيشتها من قبل اقترانها بي، كيف أتسبب في خسارتها لهم ؟

صمتّ للحظة، فلا يوجد ما أقوله، وقال لي هو:

- لا تقلقي سأرتب أمر الأسرة أنا، "صفاء" موجودة، وهي سترحّب جدا، أنت تعرفين قدر سعيها في الخير.

قلت له بضيق وقد تذكرت:

- أنا لا أكلّم "صفاء"، قاطعتني عقب الاستفتاء على التعديلات الدستورية، عندما كتبت مقالات تهاجم الإخوان المسلمين، وكما تعرف أنت زوجها أحدهم، لكني لا أتصور أنها قد طلبتني خصيصا يومها للشجار معي!

ابتسم "محمد" ثم قال:

- كثيرون اختلفوا قبيل الاستفتاء وبعده، وبمهاجمتك للإخوان مهاجمة لشخصها؛ لأن تلك الجماعة تمثل فكرها

ومعتقدها وما عاشت وضحت وتحملت الاعتقال من أجله في مرحلة حكم سابقة، من حقها أن تختلف معك.

رددت أنا:

- اختلفنا جميعنا حول كل شيء، بعد خطاب "مبارك" الثاني وقبيل تنحيه وأثناء الاستعداد للاستفتاء، وغدا سنختلف حول الانتخابات... الاختلاف أمر طبيعي ومتوقع، لكننا أبدا لم نختر كي نتعلم فلسفة الاختلاف أو تقبل رأي الآخر، هي ليست أول من تشاجر معي أو قاطعني من أجل اختلاف رأي، رغم أنك تعرف كتابتي، هادئة النبرة ومتسائلة أكثر منها جازمة.

رد علي بابتسامة قائلا:

- لكنك تهاجمين الإخوان علنا.

- أنا لا أتفق معهم وهذا من حقي، وأيام الاستفتاء لم أكتب إن كنت سأقول "نعم" أم "لا"، وكتبت مقالا أشير فيه إلى حيرتي وشعوري أن أزمة الاستفتاء ما هي إلا أزمة مفتعلة، وفي النهاية عندما خرجت النتيجة بـ"نعم" تقبلتها صاغرة باحترام، ولم أشر إلى كونها رغبة الإخوان؛ لأنها –وبغضّ النظر– كانت رغبة

الأغلبية، وفي مقالاتي كان هجومي على خلط الدين والفكر بالسياسة، وشجار "صفاء" معي كان انفعاليا وصادما لي، لم تفصل بين صداقتنا وآرائي ككاتبة.

خرجت كلماتي انفعالية وسريعة، التقطت نفسي وقلت بحزم:

- من فضلك لا أريد أن أطلب منها شيئا يتعلق بي، أنت تعرف حساسيتي المبالغ فيها أصلا، فما بالك بعد خلافنا معا.

قال لي مطمئنا:

- سأجد حلا آخر، لا تقلقي، سأرتّب كل شيء قبل سفري، لم يزل أمامي وقت طويل.

ثم عقّب ممازحا كي يخفف حدة التوتر الغالب، وهو يشير للجرائد الملقاة بيننا على الطاولة:

- اليوم أمريكا والإخوان يتحاوران، بينما أنت وصفاء تقطعان كل صلة بينكما!

ابتسمت أنا:

- أنا مفكّرة وهم سياسيون، أمثالنا لا يعرفون كيف يساسون.

وعقبت:

- أمريكا اليوم تحاور الإخوان رغم تناقض ليبراليتها مع مبادئهم، تلك هي السياسة وحساباتها المبنية على مبدأ القوى ومدى المكسب والخسارة.

ثم سألته:

- كم من الوقت ستظل بأمريكا؟

تنهّد وهزّ كتفيه وهو يقول:

- لا أعرف بعد، سأترك القرار لحينه لكني تعبت من الوحدة.

قلت بحزن:

- سأشتاق إليك، وأتمنى أن أعود لأجدك.

ربت علي كتفي وقال بابتسامة:

- إن شاء الله.

وهو يودّعني، أعطاني ظرفا مغلقا وقال لي والدموع بعينيه:

- تلك صورتها، "سيلفي" -رحمها الله- تذكرين كم طلبت مني رؤيتها.

وقفت أمامه وقد عقدت الدهشة لساني، وفيما بعد جلست أتطلع للصورة، أمامي ورق وقلم، وكتبت هوامش حكاية أخرى للكتاب الذي كنت قررت عدم نشره!

* * *

(٧)

وهكذا كذبت علينا الحكايات وصدّقنا.. أنه يجب أن يكون هو الشاطر حسن، ويجب أن تكون هي ست الحسن والجمال.. وكأنما الجمال خلق من أجل الحب.. بينما هو الحب من يخلق الجمال.

لم تكن "سيلفي" ست الحسن والجمال، ولا كان "محمد" هو الشاطر حسن.. وعندما رآها لأول مرة كان يغازل صديقتها، لكن غزل الحنين ميثاق بينه وبينها.. علق في الحنين إليها تلك الفتاة النحيفة غير الجميلة.

قال لي ذات يوم: لقد خنتها مرارا.. وبعدها عرفت من النساء ما لا أذكر عددهن.. لكنها كانت تمتلك شيئا لم أجده في امرأة أخرى.. ولمس ظاهر كفه بباطن كفه الأخرى يتحسسه وقال لي:

- كان لها لمسة بها حنان لا يوصف.

حكى لي يوما والدمع بعينيه عنه وهو يمرّضها في أيامها الأخيرة، وكيف أنه بعد موتها أزال كل صورها من البيت؛ لأنه لا يتحمل أن يلمح صورة واحدة لها.

أخبرني أنهم كانوا يتعجبون من اقترانه بها.. ذلك الرجل ذا الابتسامة الخلابة وعيون العسل المغوية ،بينما هي بين النساء لا تعد ست الحسن والجمال

كذبت علينا الحكايات وصدّقناها، وعرف هو الصدق وكذبه، والتفاحة لا تسقط لأعلى، هذا ما قاله نيوتن.. هذا ينجذب للبيضاء وتلك تنجذب للطويل وآخر ينجذب للسمراء.. كل منا له قوانين جاذبيته الخاصة، والتفاحة سقوطها حتمي.. لكن بقاءها نسبي.. تتدحرج أم تظل راقدة؟ نستلذّ بها أم نتركها للعطب؟

وتعرف بعد مرور العمر أن الحكايات لا تخبر عن العشق، فالعشق لا يروى.. العشق يعاش.. بينما نحن كحكائين نبحث عن تلك الحكايات التي بها وهج الصراع وعقدة المأساة.. لكن أولئك المحظوظين الذين أعطاهم القدر تلك النعمة الجميلة – نعمة العيش مع الحبيب حتى يذهب كل شيء ويذوى– لا نكتبهم نحن، ويتوارون هم عن حكاياتنا خلف ستائر السكينة.

أخبرني "محمد" متذكرا، عن اعتراض من حوله ومن حولها على زواجهما، اثنين من بلدين مختلفين كل منهما بإمكانه أن يتزوج

من يلائمه أكثر ظاهريا، تقابلا في بلد ثالث، ووقعا في الغرام وتزوجا ضاربين بحسابات الآخرين عرض الحائط.

وبين خلافاتهما وطلاقهما وعودتهما كانت علاقتهما مثل كل العلاقات، موضع النقد والتحليل والرهانات التي لا داعي لها على صدق الظنون وصحة التوقعات.

" الآخرون هم الجحيم"، هذا ما كتبه سارتر، الآخرون لا يعيشون حياتك وأحيانا لا يساعدونك على عيشها هم فقط يحكون عنها، نقدا أو شماتة أو ضربا للمثل.

خلال سنوات معرفتي بمحمد عرفت عن "سيلفي" كل شيء.. عرفت أنها كانت تفضل اللون الأزرق، وأنها كانت تكره شرب الخمر؛ لأنها تذكرها بأبيها السكير، وأنها كانت تكتب خواطر حزينة شبيهة بالشعر ، لم يزل يحتفظ بها ويقرؤها من وقت للآخر، وأنها هي من علمت أولادهما حب القراءة والأدب.

أخبرني عن أحلام "سيلفي" وهي مراهقة صغيرة.. وعن عدم ثقتها بنفسها؛ لشعورها أنها ليست بجميلة، وأن تخلي أبيها عنها خلّف داخلها شعورا عميقا بعدم الأمان.

أكد لي أن ابتسامتها كانت جميلة؛ لأن أسنانها كادت أن تكون كاملة.. وأخبرني عن النمش الذي يغطي أنفها القصير، وأنه كان يرى أنه يُكسبها بعضا من طفولة!

وأن ابتسامتها هي ما جذبته إليها.. وأنها جنّت في غرامه ولم تستطع الرحيل عنه رغم عيوبه؛ لأنها عشقت الطفل الذي بداخله..

فهو بدوره عاش طفولة قاسية.. بين أم وأب في خلاف دائم؛ فقد كان أبوه دائم الضرب لأمه بوحشية لا ينساها.

افتقد الحنان طوال عمره، وعلاقته بأمه ظلت مضطربة حتى رحيلها.

ووجد في حب "سيلفي" ملاذا آمنا جعله يقرر الزواج، وهو الذي لم يرد أبدا أن يرتبط.

كم قال لي إنه نادما على كل تلك الأوقات التي اختلفا فيها، وقسا هو عليها وعذّبها، كان كثير السفر نائيا عنها تاركا إياها لوحدة قاتلة، أصابتها بالجنون، قال لي يوما إنه لم يكن يدرك مقدار حبه لها وهما معا.

قلت له يوما: لقد عرفت الحب كما هو، لا حب الحكايات.. وعندما أعطاك القدر محبوبتك.. فعلت مثلما نفعل جميعا.. تعاميت عما تملك في مقابل ما لم تعرف بعد.

إن الخيانة الأكبر تكمن في الغفلة، وبها نخون أنفسنا أولا، وندفع ثمن جحودنا فقدا وافتقادا ووحدة، ما كتبها القدر علينا، بل فرضناها على أنفسنا ظالمين.

* * *

الثاني

(٨)

أعادتني "سيلفي" أيامها للورق محاولة أن أحكي له ما أعرف، رغم أني لم أكن قد عدلت عن قرار عدم النشر، وقد كنت قبل تلك الفترة بحياتي لا أجد صعوبة في التعبير عن نفسي بالكتابة، على العكس، كنت أردّد لمن حولي دائما تلك العبارة التي ذكّرتني "سلمى" بها، وهي "أنني أكتب حتى وأنا لا أكتب!"، لكن ومن قبل هجره لي فقدت القدرة على الكتابة، أو ربما الرغبة في التعبير عن نفسي بها! كانت المشاعر التي شعرت بها معه لا توصيف لها بالنسبة لي، أو ربما تشكيكه الدائم لي جعلني أخشى تلك المبالغة التي تكتسي الكلمات عندما نصف المشاعر، فآثرت الصمت.

لكنني عدت رويدا، عندما رأيت صورة "سيلفي" الشابة العشرينية المرحة التي كانت تعشق السفر، وقابلت حب عمرها في أثنائه، وانتهى بها المطاف في بلد شرقي بعيد من أجله.

تطلّعت إلى صورتها، وأنا أحاول رسم حكايتها، وساءلت نفسي عن مصير حكايتي أنا، المسافرة قريبا بعيدا عن وطني، هاربة من

وحدة إلى وحدة أشمل، باحثة عن قبس من نور ليدفئ أيامي، وتذكرت أني قلت له يوما إنني مرتحلة ولم يصدّقني.

المرتحل لا وطن له، كل أرض هي مفترق طرق من أجل ارتحال آخر، الغربة أسر والسراب وهم، والظمأ على طول الطريق.

أما الحُرّ فيحمل داخله بيتا وتحت قدميه وطنا وبين عينيه رسالة، وفي قلبه إيمان، الحُرّ جذر ضارب في عمق الأرض، وأنا وقتها لم أكن حرة بعد، والأسياد أكثر من أن نذكرهم جميعا، ولقد توهمت أن التحرر من المسئولية تجاه آخر هو ما جعلني مرتحلة، لكني لم أكن قد فهمت وقتها بعدُ معنى الحرية.

فقد كنت لم أزل وقتها أسيرة، ولم يكن قرارا هينا على نفسي أن أتراجع عن نشر الكتاب بعدما أنهيته وراجعت أكثر من نصفه، لكني وقتها كنت أشك في أهم شيء، ألا وهو ذاتي، وقد كانت تلك نتيجة حتمية لمرافقة رجل الحياة بالنسبة له "حِسْبة"، بحث فيها دائما عن المعطيات والنتائج، والدوافع في نظره كانت دوما غير بريئة.

بينما كانت الحياة بالنسبة لي قبله مقايضة بسيطة بما هو متاح؛ دافعها الاحتياج، ونتيجتها الرضا.

وقد قايضته بما استطعت فغلبتني معايير حسبته، وبقي لي الشك، فبدت لي الكلمات عبثية وطريقة صياغتي للحكايات صبيانية، وكل الأشياء غير ذات قيمة وبدوت أنا لنفسي في تلك اللحظة سؤال متشكك علقت إجابته بين كل المتناقضات.

لكن "سيلفي" أعادتني للكتابة ولو على استحياء، في اليوم التالي لذهابي لمحمد، كنت في بيت "منى" في مدينة السادس من أكتوبر، نرتب حاجياتها بالبيت الجديد الذي سيضمها هي وزوجها بعد أقل من أسبوع.

كنت أبتسم وأنا أرى سرعة حركتها وتعجّلها حولي أنا وأمي كمن يتقافز فرحا، صغيرتي، صارت عروسا، وبين جدران بيتها الجديد قضيت آخر أيام لي بمصر قبل الرحيل، أمنّي نفسي بالعودة السريعة، وأنه لن يفوتني الكثير.

غرفة واحدة تركاها فارغة، وتمنيت لو أعود لأفرشها معها، حجرة صغيرة قد تضمّ يوما مهدا صغيرا، وقفت أتطلع لفراغها وجدرانها المطلية باللون الكريمي، وذهبت بي الذكريات إلى أيام ماضية وتنهدت..

وقفت بجانبي على باب الغرفة فالتفت إليها قائلة:

- يوم يرزقك الله الخلف سيكون متاعها هديتي لك.

احتضنتني "مني" بينما سمعت أمي من ورائنا تدعو لي:

- يا رب أفرح بك أنت أيضا عن قريب.

التفت إليها وقلت مؤكدة:

- أنا سعيدة يا أمي، فاسعدي.

ثم نظرت إلى ساعتي، فبادرتني أمي بالاعتراض:

- أقسمت عليك ألا تنزلي.

نفخت في ضيق:

- ولماذا تحلفين يا ماما؟!

قالت باعتراض:

- من هنا وحتى البلد مشوار طويل، ولن آمن عليك والبلطجية بوسط البلد، والأخبار ترعب، لا يوجد أمان، حرام عليك أن تتركيني هنا في قلق، أجّلي مشواريك للغد، ٦ أكتوبر غير آمنة وخصوصا بعد غياب الشرطة.

نظرت لـ"مني" بلوم وأنا أقول:

- بيتك الكائن في آخر بلاد المسلمين هذا هو السبب!

ثم التفت لأمي وأنا أكمل:

- والبرامج الحوارية التي تتابعينها ستصيبك بكل الهواجس الممكنة، يا ماما، الناس تعيش بشكل طبيعي، ما البديل!؟ وسفري بعد عشرة أيام، ولن ينجز أحد ما أريده.

شوحت أمي بالمفارش التي بيدها، وهي تقول بتصميم:

- لن تتركينا، وسنبيت هنا كي ننتهي.

قالت "نبيت"، ولم تقل "ننام"؛ لأنها كانت تعرف أننا سنسهر حتى الصباح كي ننهي ما نفعل، لكنهم في النهاية ناموا من التعب، وبقيت أنا مستيقظة.

حتى الإرهاق فشل ليلتها في أن يسمح للنوم بأن يرحمني من ذلك الأرق الذي وتّر أعصابي وأنهكني.

بينما الجميع قد غفل، وقفت أنا في شرفة البيت الجديد أرقب الشارع الخالي والمنطقة الهادئة، وأحاول ألا أطارد أفكاري التي تمردت على إعراض ذهني المتعب، فبدأت هي مطاردتي بإصرار.

تنسمت ندى الفجر وسمعت الأذان، ووجدتني أقول من قلبي: يا رب.

استندت على سور الشرفة ونظرت لأعلى.. للسماء التي تظللني، بينما واقفة أنا وحدي خلفي بيت للمستقبل، وبرأسي ذكريات من الماضي وبقلبي غصة، وبفكري حيرة.

الوحيد الذي يسمع صمتك هو الوحيد الذي يعرف الحكاية، هو ذلك الذي تؤمن به بأنه مسبب الأشياء وخالق الوجود، كنت موقنة في تلك الليلة من أن الله يسمعني، رغم أني لم أقل أي شيء والوقت مرّ وأنا متطلعة بنظري للسماء وكأني بانتظار شيء ما.

ذكرتني تلك الليلة بليلة أخرى بالحرم المكي، فأخذت شهيقا عميقا مذكّرة روحي بطيب المسك وصوت الأذان والخطى التي نخطوها قدرا واختيارا، فالأمر مقضي منذ البداية.

نظرت إلى السماء في تلك الليلة، وسألت الله في صمت ودون حرف:

هل كان يجب أن .... ؟

ثم عقبت كالمدافعة عن نفسي:

أوَلَم يكفِ؟

رغبت لحظتها في ورقة وقلم، والكلمات التي وددت كتابتها رددتها على نفسي بصوت مسموع كانت:

" لأن الغني الحقيقي في الاستغناء، تحررت، ولأنه ليس كل من يسمع يدرك وليس كل من يبصر يرى، صمتّ ".

رددت تلك الكلمات وشعرت لحظتها بتلك الدفقة الجميلة التي يعرفها كل كاتب، عندما تواتيك القدرة على الخلق، وترى الكون كما لا يراه غيرك، وتسمع الكلمات كهمس روحاني خالص.

من قال إننا نكتب من أجل المجد؟! إننا نكتب من أجل الحياة. دافع الكتابة أكبر من أي شيء، وكم كانت لحظة جميلة تلك التي شعرت فيها بالعودة حيث آلف، دخلت بسرعة إلى الداخل، ثم عدت واللاب توب بيدي ومضيت أكتب، متمردة على الأسى والأرق، والأيام، مبصرة ذاتي بعيني الثالثة التي لا تفارقني، في شرفة بيت جديد في حي غير مأهول بمنطقة كبرت وصارت محافظة مستقلة، جالسة على الأرض يدغدغ حواسي طلّ الفجر.

مجرد امرأة وحيدة، تمارس الكتابة كمهنة، وستسافر خارج الوطن من أجل مهنة أخرى، يؤرقها الحب وتغازلها الكتابة، وتوحي لها

أزمتها العاطفية وتساؤلات الآخرين عن حياتها السابقة وافتراضاتهم المغلوطة عنها بمقال سياسي عن جمال مبارك والملك فاروق ومصر التي يخيف قاطنيها البلطجية!

كتبت عن الإرث، متعجبة من أن "مبارك" أعدّ جمال للحكم، و"جمال" تزوّج بعد سنوات طويلة من عدم الزواج، وأنجب "فريدة" كأحد خطوات هذا الإعداد، متسائلة عما يا ترى سترثه "فريدة" بعدما لم يرث "جمال"؟ أموال بلا سلطة؟! وإن كان المال وحده يكفي لما استماتوا على دوام الحكم، وما هو باعث المخاوف من عودة "جمال".

كتبت متأثرة بخواطري الشخصية حول الولد الذي لم يهبه الله لي بعد، وظنّ المحيطون أن هذا سبب انفصالي بينما هو لم يكن، متفكرة في الخطى التي نرتب لها وتأتي أمور غير متوقعة لتقلب الموازين، مشيرة في مقالي إلى مقارنة صريحة بين التشابه بين ما حدث في نهاية عصر مبارك وبين ما حدث لنجل فاروق الذي أتى بعد طول انتظار ليرث عرشا تقوّض بعد مجيئه.

قبل انتهائي من كتابة مقالي، سمعت صوت هاتف أبي يرنّ، انقبض قلبي؛ فمكالمات الفجر لها معانٍ مقلقة .. وقد كان..

بهاء مات.

هكذا أتانا الخبر، ابن عم أبي الأصغر، شاب لم يكمل الأربعين ربيعا بعد، مات فجأة، انزعجوا هم للخبر، وبدأ التفكير في كيفية نزولنا للبلد من أجل العزاء، وبدأ الحديث وسط ذكر الله عن زوجته وأولاده، بينما هتفت أنا بقلبي دون أن يسمعني أحد باسم امرأة لم أستطع نطقه أمامهم.

" شهد " .

* * *

(٩)

مصر، أحيانا تبدو لي كامرأة مصممة ألا تشتري مرآة طولية، فقط بيدها مرآة صغيرة تنظر بها إلى راسها، عاصمتها فقط، هي المركز وهي كل شيء، بقية الجسد الجميل الفتي يحتاج إلى كثير من التطلع بعين الاعتبار، لذا تبقى كل البلاد بجانب القاهرة مجرد بلاد على اختلاف أسمائها، وتبقى المركزية هي المتحكمة.

أبناء العائلات الكبيرة عددا العريقة جذورا يعرفون جيدا أنه في الموت دوما نعود لأرض الأجداد، للمنبع، حيث مدافننا، لتجمّع لموارة الميت تراب الأرض التي ينتمي إليها في الأساس، نحمله من أي مكان آخر مسافرين به في طرق المحروسة حتى بلده، كي يستقر في مثواه الأخير، ونترك نحن خلفنا بيوتنا التي عمرناها في محافظات أخرى، وأعمالنا التي هاجرنا بلدنا الصغير إلى المركزية الجاذبة لتنميتها، عائدين من أجل أن نتكاتف أثناء الحزن.

قطعا لا نغادر جميعا بلادنا، كثيرون منا يبقون جانب الأرض أو التجارة، وتكون القاهرة بالنسبة لهم بلدا بعيدا يزورونه إن ألحّت الحاجة.

مصر المحروسة، الممتدة الأطراف، طرقها المتشعبة والمتنوعة بين زراعية وصحراوية، الموصلة لقرى ونجوع وممتدة بين محافظاتها المختلفة.

نهبناها فجرفنا خيرها وظللنا لعقود يدُ كلٍّ منا في جيب الآخر، في دائرة مفرغة لا تنتهي من التحايل على الحاجة التي لم نكن لنضطر إليها في بلد مثل بلدنا الخيرة تلك.

على الطريق الطويل المتعب، الغير ممهد امتدادا، وعلى الجانبين أراضٍ شاسعة بعضها قد عمر وبعضها لم يعمر بعد، كنت أنا في السيارة معهم، وأبي يجري مكالماته وأمي و"منى" تشعران بالأسى من أجل زوجة بهاء وأبنائه الصغار، وأمه التي لم تزل على قيد الحياة وستدفن ابنها البكر، ويفكرون في الفرح الذي قد يلغى وشقيقي صامت كعادته، موليا اهتمامه للطريق الذي يقود فيه، بينما أنا أفكر في "شهد"، حبيبة "بهاء" المصراوية التي لا يعرفون هم بقية حكايتها.

قاطعتهم سائلة أبي:

- متى سينزل النعي ؟
- ليس اليوم قطعا، الغد على الأكثر على ما أعتقد.

تنهّدت متسائلة ما بيني وبين نفسي، هل أبلغ أنا "شهد"؟ يا لها من مهمة! كان كل من "شهد" و"بهاء" قد افترقا منذ ما يزيد على العام، لكن كانت بينهما مناوشات واتصالات ومحاولات عودة لا تنتهي، كعادتهما.

كانا يخدعان نفسيهما بادّعاء نهاية ما بينهما، مع أن ما بينهما أبدا لم ينقطع، كل منهما ظل يدور في فلك الآخر حتى النهاية، ورغم كل ما حدث بينهما وما اقترفاه من ذنوب في حق عشقهما.

لا أنسى أول انطباع تركته "شهد" بنفسي عندما رأيتها لأول مرة، البشرة الخمرية الناعمة والشعر الليلي الحالك، الوجه المستدير والشفاه الصغيرة الجميلة التي تبدو أشهى وهي تتكلم.. لـ"شهد" طريقة في نطق الكلمات وكأنها تتذوقها على طرف الشفاه.. لعينيها نظرة جذابة.. فجاذبية العين في طلة الروح.

كنت قبلها أسمع عنها دوما، الفتاة المصراوية التي أحبها "بهاء" أثناء الجامعة وخطبها لكن أمه كانت السبب في أن الزيجة لم تتم والخطبة قد فسخت، ثم خطبت له إحدى قريباتها وزوّجته إياها بسرعة، وظل هو وزوجته في مشاكل لا تنتهي، وكنا جميعنا نعرف أنه أبدا لم يحبها، لم يعط "بهاء" زوجته قلبه ولا إخلاصه، فقط أعطاها اسمه ومن ماله ما لا يعدّ، وانتهى الأمر بأن رحل عنها نهائيا تاركا لها الإرث، الملايين التي تزوّجته وصبرت عليه من أجلها.

لم يكن "بهاء" -رحمه الله- سوى رجل أهلكه العشق وأشقاه، لم يكن زير نساء كما ادّعت عليه زوجته في حياته، وكنت أعرف يقينا أنه لم يكن بالسوء الذي يظهر به، وأمه كانت أحد أسباب مشاكل حياته، ولقد جاهد نفسه كثيرا؛ لأنه كان يريد ألا يغضبها، وعلى عكس ما يبدو كان ابنا صالحا وبارا جدا بأمه، فهو من تحمل إدارة أعمال الأسرة بعد موت والده وتولى مسئولية شقيقاته البنات.

وحدها "شهد" كانت واحة راحته، حبيبة عمره التي لم يعرف أحد أنه ظل على علاقة بها لأعوام، لكنه لم يكن شجاعا بالقدر الكافي كي يختار مصيره.

الإرث ملك سهل وما يأتي سهلا لا نعرف قيمته، والنعومة تصاحبها رعونة الاستهتار، لذا فإنه بالبساطة التي تصاحب اللامبالاة النابعة عن الجهل بالعواقب تزوج "بهاء" ظالما نفسه وزوجته وامرأة كان عشقها له هو لعنتها التي أفسدت حياتها.

حياة "بهاء" و"شهد" زاخرة بالتفاصيل وترسم قصة حبهما بورتريه للعلاقات والعائلات والمفهوم الخاطئ عن الزواج ، ولقد كتبت منها الكثير في كتاب حكاياتي، وقطعا كانت نهايتها في الكتاب مختلفة عن الموت، فلم أتوقع أبدا أن يموت "بهاء" صغيرا هكذا، تاركا خلفه نساءه وأطفاله وأمه وحياته التي يراها الناس بطريقة وتظل حقيقتها –وكما هي العادة– مختلفة.

" بهاء" –رحمه الله– بصوته الحاد العالي وقهقهته الدائمة، من كان ليتخيل أنه كان يبكي على صدر امرأة لم يستطع أبدا تركها؟!

الحكايات لم تُخلق كي تخبر عن الحقيقة، الحقيقة نسبية كما هو كل شيء بالحياة، وإذا ما اقتربت كي تبصر التفاصيل سيصدمك فارق ما ظننت أنت عما هو بالفعل واقع.

يوم سافرت من أجل عزاء "بهاء" كان كل تفكيري منصبا حول "شهد" وحالها عندما تعرف، كانا يومها منفصلين، لكننا لا نتخطى الآخرين برحيلنا عنهم، إن تخطينا لهم داخليا هو الأهم، وهي لم تتخطه أبدا ولا هو، وكم أبكاها وهي معه وبعده بكته كثيرا ولم تزل.

كانت عيونها تبدو أكثر جاذبية له عندما تدمع.. كان يلعق دموعها، يلعق كل وجهها بحب.. وكأنه كان يُبكيها ليسترضيها، يدفعها ليعيدها إلى صدره ولا يتركها أبدا لتفلت من بين يديه.

دموعها بطعم السكر.. كلها.. ملكه هو.. منذ سنوات طويلة.. هي امرأته وحده، وهو رجلها لكن ليس وحدها.

والكفّ الممدودة تتلمس طريقها.. ترسم آهات على جسد، ويستشعر ملامحه في ذات الوقت ، كانت بصماته على كل شبر فيها.. وكأنها صنيعته.. لكنها كانت ولم تكن.

دموع بطعم السكر ذرفتها معه.. لكنها تركت نفسها بين يديه واستعذبت الألم.

وقفت أمامي ذات يوم فاتحة دولاب ملابسها، وألقت على الفراش بكل ما فيه وهي تصرخ فيّ متسائلة عما ترتدي؟ كل شيء.. كل شيء تملك كان هو من اختاره له.

كل رداء، كل زجاجة عطر، كل لون أحمر شفاه.. لكن الذكريات ليست في الأشياء.. الذكرى الأقوى هي الوشم على الجلد المستتر.

قررت يوما تركه، بعدما خذلها للمرة الألف بأنانيته مستعذبا الوضع الذي ارتضته هي في البداية يوم كانت أضعف من أن ترحل عنه فعلقت في تلك الدائرة المفرغة، بامتلاكه لها في الخفاء غير متخلٍّ عن الزوجة التي تناسب النور والمجتمع والبلد.

رحلت بالفعل، لكنها لم تجد ما يسترها بعد رحيلها؛ لأنه هو من اختار لها كل الأردية.

وجسدها يفوح منه عطره وهي غاضبة.. تريد الانتقام منه.. تريد تدنيسه بعطر آخر كي تعذّبه.

رحلت وبكته هي ليبكيها هو.. وحاولت أنا دون جدوى تكفيف دموعهما.. كلاهما كان صادقا في حبه.. وكلاهما كان يتألم بصدق.. لكنه استعذاب الألم.. والمأساة التي نحياها برضا دون أن ندري، ويفشل المقربون في جرنا بعيدا عن آهة نستلذها.

خيط رفيع بين الألم واللذة.. وازدواجية واضحة بين ما ندعي أننا لا نريده وما نسعى إليه بالفعل.

والمعضلات نخلقها لأنفسنا ونعيش نرزح تحت عذاب لا نهائي في حمق.

عندما أفلتت من بين يديه كاد يجنّ.. لم يتصور أن تكون لرجل آخر.. ولم ترد هي سوى أن تؤلمه بتلك الفكرة تحديدا، فقد كان رجلا غيورا لدرجة الجنون، والمرأة إن استحلت غيرة رجلها فقدت ثقته بعد وقت، وبدون ثقة يتحول العشق إلى مسخ.

صارت علاقتهما قبيحة الملامح، الشك والخيانة والألم والأصابع المتغرسة باللحم اللدن.. والصفعات الغاضبة.. وهي الصفعة الأولى، التي تحدد إن كنت ستقف لتلقي المزيد أم ستغلق الأبواب بينك وبين صافعك.

كل الأبواب كانت مفتوحة ، والآخرون في حكايتهما كانوا أطياف أشباح لا أنامل لهم، أنامله وحده هي التي كانت تغطيها، وأناملها وحدها هي التي انغرست في قلبه بوحشية محببة.

* * *

(١٠)

أمسكت عمتي الكبرى بالجريدة متطلعة إلى صورتي الصغيرة المجاورة لمقالي الأسبوعي، الذي كان عنوانه "الوريث"، وبعد قراءته قالت لي وهي تخلع نظارتها:

- المقال جيد.

شكرتها، والتفتّ إلى أبي الجالس بجوارنا في أحد صالونات بيت عمتي الكبير، بيت العائلة الذي يضمنا دوما في الفرح والحزن، سألت أبي بهدوء:

- متى ستعود إلى القاهرة؟

أجابني:

- غدا.

فقلت:

- أنا سأسافر اليوم.

سألتني عمتي مستنكرة:

- ولا تحضرين العزاء؟

رددت:

- لقد حضرت الدفن أمس، صليت عليه وعزيت أمه وإخوته وزوجته، أبي وأمي وشقيقي هنا، يجب أن أعود ، أمامي الكثير قبل السفر.

لم تعترض عمتي، وغمغم أبي بالموافقة، بينما رتّبت أنا مع ابن عمتي حجز القطار من أجل العودة.

في القطار أمسكت بالجريدة، وأعدت قراءة مقالي وقلبت شفتاي؛ لاكتشاف ما لا يعجبني به، أبدا لا نرضى عما نكتب، فقط لحظة الكتابة هي لحظة التحرر والنشوة الخالصة، وكل ما بعدها وما قبلها سعي إليها، تطلعت لعنوان المقال متفكرة.

" الوريث .."

الورث هو ما يبقى، كلنا نرحل ولا نأخذ شيئا معنا، في صباح ذلك اليوم كان الحديث الدائر بيننا على مائدة الإفطار في بيت عمتي حول ميراث "بهاء" وكيفية تقسيمه وأرضه وكم بلغ سعرها، ونعي "بهاء" وحجمه ومن سقط ذكرهم سهوا أو عمدا، وما أثاره هذا من مشكلات.

تحدثنا عن فرح "منى" الذي فات أوان إلغائه وفكرة تحويله لعشاء استقبال، وعدد المدعوين الذي سيصل إلى النصف على

الأقل، تحدثنا عن كل شيء مادي ودنيوي، وقد جمعنا جميعا الشيء الوحيد الثابت بالحياة (الموت)، وما هو مفترض أن يثيره كحقيقة في نفوسنا من زهد توارى خلف ما نتشاغل نحن به من إرث.

تركت المقال وتصفحت الجريدة، كانت العناوين الرئيسية للصحف في ذلك اليوم تحوي خبر تفجير مجمع محابس الغاز للمرة الثالثة!، أوردت الجريدة تحقيقا عن كل المرات التي تم فيها التفجير أو المحاولات الفاشلة للتفجير، لفت نظري أن تواريخ الأيام متكررة، محاولة يوم ٢٧ مارس ثم ٢٧ إبريل ثم ٢٧ يونيو!

تفجير يوم ٥ فبراير ثم في نفس اليوم بعد خمس شهور!

شعرت بغباء أو تغابٍ، وقد كان يضايقني وقتها على الأكثر إحساسي الدائم بعدم الفهم، رغم أني كنت أستمع لآراء كل المحيطين، وأحاول القراءة ومتابعة الأحداث، لكن شعورا خانقا بعدم الفهم كان يلازمني.

وبعد ذلك اليوم بما يقرب الشهر، جلست في ذهول وحدي أشاهد على شاشة التلفزيون " مبارك" وهو خلف السياج

الحديدي، ممددا ينظر للعالم بتعالٍ لا يناسب الموقف، ولكن يناسب صورته السابقة في ذهني.

ذهني الذي عجزت عن تهيئة إدراكه لاستيعاب كل الأحداث، فجلس على جانبها يرقبها في صمت ويتأمل، ويكتب في أحد تأملاته عن إرث ابنه "جمال" الذي وقف فيما بعد يوما خلف سياج حديدي، حاجزا أباه الممدد خلفه عن فلاشات التصوير.

ألقيت نظرة أخرى على صورتي المجاورة للمقال، ولسبب ما استفزتني ابتسامتي وشعرت بأنها ابتسامة حمق، نعم أيامها كنت حانقة على نفسي لأني لا أفهم، متفكرة في مشاعر وأفكار من عاصروا مصر أثناء انقلاب يوليو ٥٢ مراجعة في ذهني ما كان متوقعا وما حدث فعليا فيما بعد.

جلست شاردة وصامتة في القطار، أفكّر في ذلك الشعور بالعجز عن إحاطة الصورة العامة بمنظوري القاصر، وكيف كنت أشعره مؤخرا على كلا الصعيدين الشخصي والعام، ففي حكايتي الخاصة كنت وقتها غير متفهمة تماما لما حدث تحديدا بيني وبين ذلك الرجل الذي دخل حياتي ليرحل عنها، كنت في ذلك اليوم لم أزل أهرب من محاولة مواجهة نفسي بما يتعلق بحكايتي

معه، لم أكن أنطق اسمه أو حتى أخبر عنه وكأنني إن أخفيته، دفنته بوجداني، الهروب كان هو الحل الأكثر راحة لكنه لم يكن أبدا الحل الأمثل، أشباحنا التي نغلق عليها باب التناسي ونرحل عنها لكنها تعود لمواجهتنا، تقفز فوق رؤوسنا وتقف أمامنا في لحظة غير متوقعة لتجابهنا بينما نحن الم نزل في منتصف الطريق.

حتى القطار ذكرني به!، يا لكثرة ما فعلنا رغم قصر الوقت، فعلنا كل ما يمكن أن نفعله معا.

أمسكت هاتفي ونظرت إلى شاشته الخالية، وتساءلت "ترى أين هو الآن ؟ "

لا أملك منه صورة أو تذكارا، فقط حنين عميق أخفيه لكيان لم أحك عنه لأحد.

ذلك المادي الأحمق، كيف أحببته؟ هكذا غمغمت لنفسي، متذكرة إلحاحي عليه ألا يهاديني أبدا، الامتلاك كان ما أهرب منه؛ خشية أن أحتار بأشيائه بعد رحيله، كنا زوجين من الحمقى عالقين في علاقة لا توصيف لها؛ فلا نحن عففنا عن الحب ولا

نحن مارسناه!، وكان قد قال لي إن الذكريات التي بيننا أقوى من الهدايا التي أخشاها، وقد كان محقا.

لكنه على الرغم من هذا كان ماديا في منظوره للأمور، على عكسي أنا، هو رجل حسابات، يلزمه السنتيمترات الصحيحة كي يتوازن الشكل والأرقام المنطقية كي تصح النتائج، بينما أنا فنانة أرى في قلب العبث توازنا ما، تلتقطه عيني وتجسده محاولة الإشارة إلى أفق مختلف للمنظور.

تذكرت كل أحاديثنا عن المال والعمل والنجاح والشهرة وكل شيء، جدلنا الذي كان يمتد بالساعات دون أن ندري، بين تناغم وتنافر، ونقط اختلافنا التي كانت توازي نقط اتفاقنا، وظلت حلاوة رفقته دائما أقوى من كل شيء.

"أين هو الآن؟"

سؤال ألحّ علي يومها منتظرا إجابة يعرف أنه لن يحصل عليها، ولا أدري أي شيطان وسوس لي في تلك اللحظة بأنه لا قدّر الله إن مات لن أعرف عنه شيئا ، عذّبتني الفكرة التي باغتتني بقسوة، وتذكرت "شهد" وبكاءها المرير في الليلة السابقة، ورفضها أن أراها عند عودتي إلى القاهرة؛ لأنها تريد الانعزال.

تذكرت يوما صرخت فيه بغضب: "أنا لم آخذ منك شيئا لم تودّ أنت إعطائي إياه، لم آخذ منك سوى وقتك ومودتك وعن طيب خاطرك أنت " .

الوقت وقد انتهى والحكاية صارت ماضيا، أي أسى قد أشعره تجاهه إن رحل عن دنيا لا نقتسمها ولا نتلاقى بها؟

ظلت حشرجة صوت "شهد" وهي تنتحب في أذني، وكدت أبكي لمجرد الخاطرة، لكني رددت لنفسي، لم يكن هو "بهاء" ولا كنت أنا "شهد"، لم يدنس أحدنا ما بيننا، والألم من أجل انسحاب بهدوء أهون من أي أمر آخر، لم يبكِ أحدنا للآخر عند الرحيل مستبقيا، ولم نحوّل ما شعرنا به -أيا كان توصيفه- لشفقة أو شعور بالذنب، لم نستعذب الألم ونعذّب قلوبنا بوجع لم تستحقّه، ما بيننا كان جميلا لبساطته، رفقة جميلة وانتهت، تجنّبنا خلالها الأمل وخديعته والوعود وكذبها، وعشنا اللحظة الخالصة وأفسدها علينا حب الامتلاك، والتساؤلات التي لا أجوبة لها، ولا يجب أن أشعر سوى بالغيظ منه، لا الخشية عليه، فلقد تركني ودفع كبريائي لتركه.

مسرّية عن نفسي رددت لها بأن ذلك الأحمق سيعيش طويلا ويكون بخير، وأنا الأخرى، سأصير بخير.

هكذا وبمنطقية حاولت تسكين ألمي وطرد أفكاري السوداوية، لكني بدلا من هذا توجهت بتفكيري إلى تساؤل عن اللقاء، إن كنا سنلتقي ثانية، ولو صدفة؟ وأين وأنا سأغادر مصر ولا أعلم متى وكيف سأعود؟ هل سيهتم أحدنا لخير أو شر أصاب الآخر ؟ أم أن الأيام ستحجب ما سيكون؟ أسئلتي التي لا إجابة لها رافقتني برحلتي وفشلت في تفاديها، كل سؤال يؤدي إلى آخر وتطلعت للطريق بجانبي مستبطئة القطار متعجلة للوقت، وسيطرت عليّ فكرة أني أريد الوصول سريعا، وتململت كثيرا بمقعدي كما لم أفعل في سفر من قبل، فعادة أنا أستمتع بالسفر.

لكن رغبة ملحة في النزول من القطار سيطرت عليّ وظللت متطلعة من النافذة وكأني أريد القفز خارجها وكأنني سأترك أفكاري السوداء وضيقي خلفي بعربة القطار تلك، على مقعد فردي مجاور لنافذة .

(١١)

يمر الوقت علينا غافلين عن الشعور بالدقائق ثم ننتبه لكل التفاصيل الصغيرة عندما يهددنا الفقد، إنني أذكر أنه كان يوم الأربعاء، عندما مررت على الجوازات باكرا، ثم قررت أن أزور "سلمى " .

لم يغب عني أيامها –رغم انشغالي وتلاحق الأحداث– تغير "سلمى" وابتعادها عني، علاقتنا واحدة من العلاقات التي توصف بأنها علاقة عمر، عندما يهبك الوقت ثباتا واستمرارية لها رغم السنوات والظروف.

ليلة عودتي من العزاء كان بصوتها شرود وحزن أقلقني، قررت أن أمر عليها في اليوم التالي باكرا بعد مروري بالجوازات .

كانت "سلمى" قد استيقظت لتوها، وهي ليست نهارية المزاج، تستيقظ مقطبة وصامتة وأنا لم أشأ إزعاجها، وكنت واثقة أنها لا تنزعج من وجودي أبدا، وأسبوع واحد كان يفصل بيني وبين السفر، وهي ساعة لقاء اختطفتها من يومها المزدحم.

جلسنا متجاورتين، صامتتين ثم بادرتها بالسؤال بصوت خفيض وهادئ:

- ما بك؟

دون أن تلتفت لي قالت وبهدوء:

- أنا و"معتز " .

باهتمام سألتها عن زوجها:

- خيرا؟

زفرت هي وقالت بحزم لم أعتده منها:

- لا أريد أن أحكي.

ابتسمت، فتلك كانت هي عبارتي المتكررة مؤخرا، لكني لم أُلحّ عليها، وليتني فعلت، لم أتصور وقتها حجم المشكلات التي تعاني منها، تصورتها مجرد مشكلات عادية، ولعلمي أن الزواج لا يخلو من منغصات لم ألح في السؤال عما ظننته معتادا.

كما أني كنت أعرف أن فقد "سلمى" لعملها له أثر كبير على حالتها النفسية وقتها، وهي التي عاشت عمرها كله امرأة ناجحة جدا عمليا، بين عشية وضحاها فقدت عملها وفشلت في ظل الظروف في إيجاد بديل قريب، كنت أعرف أن بحياتها عوامل متعددة تؤثر عليها، ولم ألح في السؤال ، ليس عن عدم اهتمام ولكن عن عدم قدرة على تغيير أي شيء.

كانت كل منا منشغلة بهمها وأحيانا حتى المودة المحيطة بك لا تكفي لمواساتك مهما بلغ صدقها، من كتب يوما يقول إن سلامنا النفسي ينبع من الداخل هو رجل خبر سرا من أسرار الروح، ما المحيط إلا دائرة لا تكتمل إلا بدورتنا داخلها، وتحركنا بها هو وفق إرادتنا والإرادة هي القلب النائي عن المحيط المؤثر به، إن الإرادة في حد ذاتها حياة بقلب الحياة.

فيما بعد وأنا بعيدة عن "سلمى" كل البعد، تخطّت هي محنتها وحدها، على غير عادتنا مع بعضنا، لم تفصل بيننا أبدا المسافات، وكنا فيما مضى دوما قادرتين على تخطيها كي نصير معا، لكن هذا قد تغير مع تغير كل منا. تغيرنا دون أن ندري، وهذا هو العمر، غرقنا في أنانية لم تعتدها علاقتنا، وفترت الحميمية دون أن ندري .

إنني أذكر يومها وهي تسألني:

- لا أفهم لماذا تضطرين نفسك للسفر؟!

قلت لها باختناق:

- ضاقت عليّ الأرض.

سألتني بغتة:

- ألم يعاود "هو " الاتصال بك؟

هززت رأسي نافية وأكدت لها:

- الأمر لا يتعلق به "هو".

ثم أطرقتُ وكأني أبحث عن كلمات لتوصيف ما أشعر ثم تنهدتُ عندما طال صمتي، تنهيدة مسموعة ملؤها الأسى، ثم سألتني:

هل أحببته لتلك الدرجة؟

أجبتها:

- أود أكثر أن أصدق أني يوما ما سأنظر خلفي وأسخر من تلك الحكاية التي لا توصيف لها والرجل الذي لا اسم له، وأني كما ظل يقنعني هو لم أحبه أو سأحب بعده حباً أعظم.

بِحَيْرة سألَتْ:

- لا أعرف ما الذي حدث بينكما، ولا أفهم لماذا كان ينكر مشاعرك؟!

قلت لها ساخرة:

- كان كلانا ينكر كل شيء، ولم نزل.

بتوتر وضيق قالت:

- لا أستطيع حتى تلك اللحظة أن أتخيل أنك فعلا وبعد كل هذا العمر، أخفيتِ عني كل شيء، كل ما قلتِه عنه وكأنك لم تقولي شيئا، أخذك منا جميعا وكأنك مسلوبة الإرادة، أظنه شخصا خبيرا غرر بك ولاعبك.

ابتسمت في هدوء:

- لا أعرف كيف أشرح لك لكن صدقيني، لم يلاعبني أو يغرر بي، وقد كنت بين يديه إن أراد خديعتي، لكن كلانا أبى الكذب على نفسه بلا مبرر.

بحَيْرة قالت:

- أي كذب على النفس؟ لا أفهم، أي شيء، لا أفهم حكاية رجلك السخيف الذي لا اسم له، ولا أفهم ما جرى لك.. وأحيانا أشعر أني لا أعرفك وكأنني لم أعاشرك عمرا!

نظرت لها وهممت بقول أشياء، أشياء عدة، مختلفة، عن الأمس واليوم، وحاولت فعلا ترتيب الكلمات، لكنني بعد برهة صمت وجدتني أنظر ثانية أمامي وأقول لها:

- لقد انتهت تلك الحكاية.

شعرت بحنقها، وصمتت هي الأخرى لثوانٍ، ثم قالت لي ببساطة:

- كيفما تشائين.

قلت لها في استرضاء:

- صدقيني يا "سلمى"، الأمر لا يتعلق بنا أنا وأنت، وإن كان مع الأسف قد أثر علينا.

قالت هي بلهجة غير مصدقة:

- لا تبرري، لقد انتهت تلك الحكاية كما قلت أنت.

ثم عقبت متسائلة وهي تنظر لي:

- لكن هل انتهت فعليا؟

قلت لها كالمذكرة:

- أنا مسافرة يا "سلمى".

نظرت هي لصورة "معتز" زوجها بجانبها على المنضدة المستديرة وقالت:

- لقد عدنا أنا و"معتز" بعد سنوات انقطاع.

هززت رأسي وقلت بسرعة وإصرار:

- كلا لن يحدث، لن يحدث.

ثم عقبت:

- كما أن علاقتكما أمرها مختلف.

لأنها هي من يعرفني حق المعرفة نظرت لي كمن يفهم ما غفل عنها وقالت:

- آه!

قالتها ممطوطة ولم تزد عنها ولم أسألها عما تقصد، وشردت بعيني بعيدا عنها وشردَت هي الأخرى في أفكارها.

ثم ابتسمت أخيرا وسألت كالمسرّية عنا:

- أخبريني على الأقل ما هو برجه؟

خرجت ضحكتي عالية دون أن أدري وقلت لها:

- هل ستصدقينني إن أقسمت لك إني لا أعرف تاريخ ميلاده.

ضربت بيدها على يد المقعد وقالت بغيظ ممازحة:

- غير معقول، وأنت غير معقولة! متى سأكتشف أن رجلك هذا ما هو إلا بطل وهمي لرواية من رواياتك ولم يكن له وجود فعلي؟

ضحكت أنا وأكملَت هي ممازحة:

- ما الذي أحببته فيه، "مستر إكس؟" ذلك الذي لا نعرف له اسما ولا ميلادا ولا عنوانا ولا حكاية.

ابتسمت لبرهة متذكرة وقلت لها بجد:

- لم أخبره أبدا بما أحبه فيه، تخيلي! رغم أنه أخبرني بكل ما يحب ويكره فيّ، وبالغ في وصف تفاصيلي، كانت عيونه تلتقط كل شاردة مني وكل لمحة، ويظل يعلّق على كل شيء ويدفعني للجنون بتعليقاته المتتالية، ثم يبدأ في الشجار معي والسخرية مني فأغضب، ويبرر نفسه بأنه يهتم!

علقت "سلمى" متهكمة:

- كل هذا وينكر!

قلت لها ساخرة من أنفسنا:

- و الأدهى أنه كان يزعم وجود حاجز بيننا، وكنت أشتكي أنه منشغل بي عن الانغماس فيما يشعر، كان حاجزا وهميا وضعه انعزاله وهربه ونقده الدائم وشكه وظنونه.

ثم عقبت بصيحة عالية مرجعة رأسي للوراء وأنا أزفر:

- يا الله! كم كان متعبا!

ضحكت "سلمى" أخيرا وسعدت لضحكتها وبدعابتنا التي أزالت آثار الهم:

- ولِمَ تعب القلب هذا؟

أجبتها أنا:

- لأن قلوبنا تتعبنا، أنت تعرفين، نحن لا نختار، قلوبنا تميل وتتقلب وتتعبنا معها.

شردَتْ للحظة وقالت مصدقة على كلامي:

- صدقت.

ثم أردفت:

- كيف صمتّ عن إخباره؟ كيف لم تكتبيه حتى الآن؟

صمَتُّ للحظة وقلت لها:

- ولماذا أكتبه؟ ويا لها من أشياء حمقاء وصغيرة تلك التي نراها بعيون المحبة، ويظن الآخرون فينا السطحية إن كتبناها، هل أكتب أني كنت أحب صدقه وذكاءه وابتسامته، أو أنه كل مرة كان يكلمني كان يبتكر مدخلا ما للمكالمة؛ لأنه يشبهني تماما في حساسيتي، ولأنه يظن أني سأمل مكالماته، بينما أنا لم أملّها أبدا، وحبي لرفقته وحبه لرفقتي كان سببه عدم

الملل مهما طال الوقت، أنا لم أحب نظراته لي حتى عندما كانت تدعي محبتي، قدر ما أحببت نظراته وهو شارد؛ لأني كنت أعرف يقينا أنه رجل عظيم يفكر أفكارا عميقة ومهمة.

ضحكت هي ساخرة:

- وهل كنت تقرئين أفكاره؟

التفتّ لها:

- لقد كنت أرى حتى ألمه الذي يبالغ في إخفائه وكل شروده وصمته عن حكايات مناطق وجعه التي استتر مني بها خلف انعزاله كنت أعرفها رغم أني لم أعرف عنها شيئا، ولا تسأليني كيف كنت أرى ولا تسأليني عما رأيت؛ فإني لم أهتك ستره ولو أمام نفسه، فهو أقوى من أن يحب أن يرى ضعفه أحد، لكن مرحلته الانتقالية أضعفته، وهي مرحلة آمل له أن تمر ويتوازن، إن بداخله كل ما يلزمه ولم يحتجني أبدا، ولقد مرت الشهور ونحن معا يذهب ويعود وحده متوصلا لما أردت أنا إخباره به وصمتّ عنه؛ لمعرفتي يقينا بأنه سيدركه بمرور الوقت، لكني في النهاية آثرت الرحيل فأنا الأخرى أمر بمرحلة انتقالية وأحتاج أن أستقر.

أسندت ذقنها على كفها ونظرت لي ببود وقالت لي في أسى:

- خسارة!

اطرقت أنا ولم أعلق فسألتني هي بفضول:

- هل كان وسيما؟

ضحكت أنا ضحكة عالية وقد تذكرت:

- هو مثله مثلك ومثل الجميع، ينتظر مني أني أحبه من أجل لون عينيه أو محيط خصره أو وضعه الاجتماعي أو المادي، مثله مثل الجميع، يقيم العالم ويترك للعالم فرصة أن يقيمه.

سألتني "سلمى" ساخرة:

- وماذا تفعلين أنت؟

أجبتها وقد عادت لي ذكرى الحزن والحيرة:

- كنت قديما أملك عالمي الخاص بي أنا، اليوم أنا لم أعد أعرف.

سألتني باهتمام:

- ألم تزلي فاقدة القدرة على الكتابة؟

قبل أن أجيبها، سمعنا صوت انفجار مدوٍّ وارتجّ الزجاج المواجه لنا، قفزت "سلمى" من مكانها في لحظة بينما ثبتت أنا وسألت:

- ما هذا؟

وقفت سلمى في منتصف الغرفة، مضطربة وقلبها يدق وقمت أنا متوجهة ناحية التلفزيون، وفتحته واستدرت لـ"سلمى" التي توجهت للداخل لترى ابنتها النائمة قائلة:

- افتحي اللاب توب، تويتر.

نعم، هذا هو عصرنا، وتلك هي مصر في أيام شبابي.

الثورة تحركت من هناك من عالم كانوا يطلقون عليه افتراضيا، كانت صحفنا الحكومية كاذبة مخادعة، فجعل كل منا نفسه صحافي، له صفحته الخاصة، أقمنا عالما موازيا مارسنا فيه الحرية التي حرمنا منها، وتكلمنا فيه بالسياسة التي لم يعلمنا مفاهيمها أحد وتمردنا على قهر كان لتكبيلنا، تخطينا الحاجز الوهمي للعالم الافتراضي وقفزنا منه إلى العالم الآخر محدثين ثورة، وسجلنا تاريخ تلك الثورة في مواقع إلكترونية على صورة تغريدات متتالية واستيتوس، وتدوينات لا تنتهي نكتب فيها على

حائط إلكتروني، يتطلع إليه كل من يريد بكبسة زر، ويلغيه مالكه بكبسة زر لا نملك نحن الوصول إليه!

على "تويتر" نزلت الأخبار فورا، وأمسكت أنا هاتفي بسرعة كي أكلم "ريتشارد" للتأكد، صحافي حقيقي لا افتراضي، استقصائي يحيا دوما في قلب الحدث.

أكد لي "ريتشارد" ما بدأنا قراءته على تويتر دون تعريف بالمصدر.

طائرة اخترقت حاجز الصوت، كوبري بكورنيش المعادي انهار.

ثم سألني عن مكاني وبدأ في لومي، كنت قد ابتعدت عن "ريتشارد" قبل هذا الوقت إثر خلاف بيننا.

بصوته المرح كعادته غالبا عندما نتكلم، بدأ "ريتشارد" في توبيخي وقال:

- ستسافرين دون أراكِ أليس كذلك؟!

ثم بدأ في السباب ممازحا، وكعادتي أرد عليه مشاكسة إياه صاعا بصاع، ثم قلت له:

- أقابلك غدا، ليلا؟

رافضا قال:

- غدا الماتش، أنا قريب منك الآن، سأمر لأقلك.

* * *

(١٢)

"ريتشارد" هو ليس بـ"ريتشارد" وسبب إطلاقي عليه هذا الاسم يرجع لدعابة وحكاية، وقد كان صديقا حديث العهد بحياتي، هبط عليّ فجأة من حيث لم أدرِ، يوما ما قرأ لي مقالا وقرر أنه يريد أن يعرفني شخصيا، وهكذا هو "ريتشارد"، يقرر كي تصير الأشياء.

ذلك الصديق الذي طالما ردد على مسامعي أن حكمته المفضلة هي: "العالم يفسح الطريق لمن يعرف وجهته "

جلست أمامه بمكتبه بالجريدة، مكملين حديثنا الذي لم ينقطع طوال الطريق، متطلعة إليه ومبتسمة ابتسامتي المعهودة، ونحن كعادتنا نتناقر، بدأنا الحديث في السياسة وانتهى بنا إلى الحديث عن الشعر.

بين عقلينا كيمياء تجاذب وتصادم، وغروره هو أكثر ما يستفزني به؛ لأنه لا يناسب شخصيتي الوسطية، لكنه كان دائم التعليم لي بإخلاص، وخصوصا فيما يتعلق بمجال الصحافة، وقد كان وقوفه جانبي على الصعيد العملي والإنساني أمرا لم أنسه له، رغم تباعدنا لفترات.

- كنتِ زعلانة مني ليه يا بنت؟

بضحكة أجبته:

- لأنك مغرور وأحمق.

يضحك سائلني عن "رجلي" كما يلقبه:

- ورجلك ما هي أخباره؟

أجبته:

- مغرور وأحمق هو الآخر.

- كل الرجال هكذا.

- تعرف أني أكره العنصرية وتصنيفاتها، رجل وامرأة! لا يوجد مطلق.

قلب في أوراق أمامه باحثا عن شيء ما وهو يقول:

- هذه هي مشكلتك، ترفضين أن تكوني، ترحلين عن نفسك لتعودين إليها، ينقصك حدة، ينقصك لون بعينه.

بتحدٍّ رددت:

- ولماذا لا أكون اللون الأسود الذي يناسب كل الألوان؟

نفخ وقام مفتشا في الأدراج خلفه مكملا البحث:

- أواه، كنت قد نسيت "لماضتك".

ضحكت أنا قائلة :

- ستَرتاح مني ، الأسبوع القادم سأسافر

سألني ثانية:

- ورجلك؟

أطرقت متنهدة:

- لم يعد رجلي يا "ريتشارد " ولم يكن في الأساس.

مسريا عني قال بلهجته الساخرة:

- تعرفين، حكاية ذلك الرجل الذي صممت أن تخفي اسمه عنا جميعا تشبه حكاية من؟ "الراجل اللي واقف ورا عمر سليمان"، هل تذكرين صفحة "فيس بوك" التي أنشئت للسخرية منه؟ هذا ما سأفعله بك. سأضع صورتك وبجانبك صورة لرجل بلا وجه ونبدأ في التخمين.

ضحكت وأنا أقول له:

- أنا فقط لا أنطق اسمه لكن ملامح وجهه لا تغيب عن ذهني.

ضحك بصوت عالي وقال بسخريته المعهودة:

- يا للرومانسية!

غيرت وجهة الحديث:

- والله نحن شعب غريب، نسخر ونطلق النكات في عز مصائبنا.

قال هو بحماس:

- شعب جميل لبلد أجمل وأنت كحمقاء تغادرين ولسه ودفئه يا غبية.

ثم مدّ لي يده بالورق الذي وجده بعد البحث:

- ألقي نظرة على هذا، تحقيقي القادم.

صمتت قليلا وأنا أقرأ، ثم بإعجاب حقيقي قلت:

- جميل جدا، لكن يحتاج إلى اختزال.

ثم أشرت له على فقرة بعينها وقلت له:

- بدءا من هنا أعد الصياغة.

نظر لكلماته ووضع كفه الممدودة على خده كعادته وهو يقرأ، وفكر للحظة ثم نحّى الورق ونظر لي قائلا:

- أنا أختزله فعلا، لكن هناك نقاط يجب أن أذكرها، أنا أعيد كتابته بالفعل، سنرى، بالمناسبة، ما أخبار كتابك؟

أطرقت للحظة وفهم هو إطراقي قبل أن أتكلم وصاح فيّ:

- لن تنشري الكتاب؟

- لا يعجبني ما كتبت.

ببساطة دافعت عن نفسي بتلك الحجة فدحضها على الفور:

- ومتى نرضى عما نكتب؟

زفرت ولم أردّ، فأكمل هو:

- يا له من إهدار لموهبتك، كان الأحرى بك أن تعيشي هنا وتحترفي الكتابة، إمكاناتك الأدبية تسمح، لكن دون مبرر منطقي تهربين.

رددت عليه:

- لا أريد أن تتحول الكتابة إلى حرفة، انظر لصحفنا بعد الثورة تحولت إلى ما يشبه الصحف الصفراء، فتح ملفات والتنقيب خلف أسماء، احترافي الكتابة لن يفيد موهبتي، أنا مفكرة وكاتبة ولست بصحافية.

شوح بيده:

- هراء.

أشرت لصورة زوجته على المكتب وقلت له:

- أنت لك مهنة هنا يا "ريتشارد" وحبيبة وحياة، ودخل ثابت ونجاح تستحقه، أنا لا شيء لي هنا كي أبقى.

باحتقار لدفاعي الأجوف قال بحزم:

- إننا من نصنع نجاحنا بأيدينا، عندما نصمم عليه، لا يأتينا النجاح عند أطراف أقدامنا، وإن أتى كيف نركله بتخاذلنا وهروبنا؟!

ثم نظر لوجهي في ود وقال لي:

- هل تعرفين لماذا نحن أصدقاء رغم اختلافنا؟

ابتسمت سائلة:

- لماذا؟

فوضع يده على صدره البادي من قميصه المفتوح:

- لأننا نتشابه في القلب، في الأساس، نشأتنا المتشابهة وحبنا للتعبير عن ذواتنا بشتى السبل، واختلافنا الذي كان وسيظل لعنتنا، وذكائنا المتقد بعيوننا.

رددت:

- لكن ربما فعلا ينقصني بعض من حدّتك، أنت دوما ثائر ومتمرد، منذ كنت في الجامعة، أثبتت تفوقك تمردا على

ابن العميد الذي عُيّن بدلا منك رغم استحقاقك، ولم تكفّ عن المعارضة عندما تعرضت لمشاكل مع جهاز أمن الدولة في العهد القديم، فصرت صحافيا في جريدة معارضة، وكل خطوة من خطى حياتك كانت ثورة على ما لم ترده، ربما أنا فعلا أشبهك لكن ينقصني الحدة الكافية.

قال بثقة:

- أنت متمردة بالقلب، ولم تكوني أبدا تلك الخانعة، وقد كنتِ على ما أذكر، قوية، ثائرة على ما لا يرضيك حتى وإن خالف منطقك منطق المحيطين.

ببساطة قلت له:

- ربما إذاً الأمر لا يقتصر على الثورة، ربما ما بعدها هو الأهم، التغيرات الجذرية تزلزل الأرض من تحت أقدامنا ويبقى دوما الأكثر قدرة على الثبات والتكيف.

هز رأسه غير مقتنعا:

- لم تكن ثورتك وليدة الصدفة، وكان الأحرى بك أن تثبتي، لماذا لا تحكين أبدا عن حبيبك؟

- باغتني سؤاله ورددت دون تفكير:

- لأنه ليس بحكاية يا "ريتشارد " .

نظر لي بعينيه القوية وكأنه يريد تعريتي ليرى باطني، فهربت من عينيه وقال لي:

- لسبب ما لا أدريه، أذتك تلك الحكاية وأضعفتك، وتهربين متصورة أن هذا هو الحل الأمثل، متناسية أنك تحملين ضعفك داخلك، في وحدة الغربة ستهلكين، رجل واحد يشتم رائحة ضعفك سيضعك عندها تحت نابه ويفتك بك.

بغضب رددت عليه كامرأة:

- هو ليس صراعا، وهي ليست بحرب ونحن لسنا بخصمين، ويا لنا من ساديين ومازوخيين نتلذذ بنشوة رائحة الدم!

قال لي:

- لو أنك تستسلمين للتجربة كي تكتسبي الخبرة لصرت أقوى وأكثر حنكة، أخشى عليك صدقا من الغد، أنت غضة وهيابة.

رددت عليه بمرارة:

- التجارب أحيانا تشوهنا لا تصقلنا، وخصوصا إن كان لا داعي لها، طبيعة شخصيتي ليست كما تظن، لا لكوني أقاوم، إن ما عشته كانت قناعاتي.

ثم أردفت:

- هنا تحديدا يكمن وجه الخلاف بيني وبينك، وسبب حدتنا أثناء الجدال حيث تصر أنت على وضعي داخل إطار بعينه يناسب منظورك، وأغلب البشر يفعلون هذا مع الآخر، وهل تعرف لماذا؟ لأننا لا نعرف كيف نتقبل الاختلاف أو نتفهمه، ما بين الغرور وحب التملك نمضي في تعامٍ غير مبرر في محاولات لتغيير الآخر ليصير كما يراه منظورنا، وإن فشلنا في هذا هاجمناه.

قال لي:

- ألا تريدين أن ينتقدك أحد؟

أجبته:

- على العكس، تعرف أني مرنة، لكني لا أحب الافتراضات المطلقة.

قال بنفاد صبر:

- أي افتراضات مطلقة تعنين!، أنت تعيشين الحياة بنصف وعي وتكبتين الكثير من رغباتك.. كم مرة تكلمنا في هذا وكلامي دائما ما يثير حنقك تجاهي، هذا ما أعنيه باستسلامك للتجربة، بأن تعيشي.

مجادلة رددت عليه:

- أنا لا أكبت نفسي ولا أمنعها عن شيء.. لماذا لا تصدقني؟ تضعني في تصور مغلوط يناسب المسببات والنتائج متناسيا أن أمثالي هم دوما خارج السياق.

ثم أكملت:

- أتريدني أن أعيش الحياة بفكرك؟ أتريد أن ترسم لي خطا لأسير عليه؟ لي أفكاري وطبيعتي المختلفة.

رد علي:

- من قال إنها كلها أفكارك أنت وطبيعتك أنت؟ هي أفكار المحيطين بك وما جبلت على عيشه، أريدك أن تتحرري من هذا عندها ستكتبين يادراك مختلف ووعي ناضج.

قلت له:

- كل ما عشته كان وفقا لقناعاتي الخاصة وتوافقها مع قناعات المحيطين لا يعني بالضرورة انسياقي، وأنا غير حادة؛ لأن تلك هي طبيعتي، لكننا غالبا ما نشذ عن القطيع لنخلق قطيعا آخر، والخارج مثلي عن القطيعين معا عالق في توهة دائمة، في محاولة تبرير الذات، لي قناعاتي الخاصة التي خلصت لها مع احترامي لقناعات الآخرين.

فردّ علي:

- في الماضي ربما، لكنك اليوم متأثرة بكل ما حاول المحيطون إقناعك به، وأرى هذا جليا عليك، وأكبر دليل هو قرار سفرك، ولا أعني السفر في حد ذاته ولكن أعني دوافعه.

ثم أردف بهدوء وحكمة:

- لا أضعك أبدا في سياق ما، ولو لم أرك كما أنت ما احترمتك.. حاولي فهمي وكفي عن المقاوحة، الأهم هو كيف تبصرين أنت نفسك اليوم؟

مطرقة قلت بأسى وكفّ عن الجدل:

- مهزومة رفضت أن تسير في قطيع بعينه وآثرت الهرب.

قال بصوت عميق:

- خارج الحظيرة تيه ممتد، ولا يوجد طرق ممهدة لتحديد الاتجاهات، خسارة، ليتك ثبّتي وأثبتي اختلافك، الاستسلام للانسياق يعادل الاستسلام للنبذ، كلاهما ضعف، إن لم يكن عن قناعة.

سألته وأنا شاردة فيما كان:

- من أين يأتي كل هذا العنف يا "ريتشارد"؟

قال لي:

- أول خطيئة كانت القتل عزيزتي، قتل الآخر؛ لاختلافه وتفضيله.

رددت عليه:

- ليس في القتل وحده يكمن الأذى، الأنانية والحقد والغيرة كل ذلك يدفعنا لأذية الآخر بكل طريقة ممكنة.

ردّ هو:

- الشجرة العالية تُقذف بالطوب، ولا يوجد خير مطلق أو شر مطلق، كل فرد به الوجهان، والحذر واجب في كل الحالات.

شردت في كلماته وفي من قد أظن أنهم آذوني وكيفية الأذى ومداه وأثره على نفسي، ثم تطرق فكري لسؤال نفسي: إن كنت أنا قد آذيت أحدهم! الأذى علاقة تبادلية، منذ بدء الخليقة والتورط فيه حتمي، فلكي تردي قتيلا ستصير قاتلا، وعذاب الضمير لم يكن هو القصاص في ظني، العجز عن مواراة السوءة التي كشفت سوءة الخطيئة كانت هي الحكمة.

قاطع "ريتشارد" أفكاري:

- أين ذهبت؟

أجبته بصوت لم يزل متأثرا بشرودي:

- في الأذى، الشك لعنة، وأذيته لي التي تتساءل عنها كمنت في إصابتي به.

حاول تغيير مجرى الحديث قائلا:

- نحاول إجراء تحقيق عن الأموال المهربة للخارج، وعودتها من أهم الأهداف، دم الشهداء يجب ألا يضيع هدرا.

قلت له:

- الشهيد والثائر يا صديقي كلاهما حالم لا يجني ثمار حلمه، يتسلل آخر سارقا حلمهما مشوها إياه.

ردّ هو معترضا:

- لكن يبقى لهما المجد.

بسخرية علّقت أنا:

- ينالانه بعد رحيل عن الحياة.

ثم شردت للحظة وأنا أقول له:

- هل تعرف ما يؤلمني حقا، أن أسوأ أنواع الحب هو ذلك الحب الذي تحبه وأنت مبصر عيوب الآخر قبل محاسنه، عندها لا يكون خدر السكر هو ما وصل بك إلى النشوة، بل الاستغراق في النشوة هو ما يصل بك إلى قمة الخدر.

أطرق للحظة ثم ابتسم كمن تذكر شيئا ما وضغط على شفته السفلى بسنتيه الأماميتين كعادته، وردد كلمات جاهين:

- بحبها بعنف ورقة وعلى استحياء ،، وأكرهها وألعن أبوها بعشق زي الداء، واسيبها واطفش في درب ، وهي تبقى في درب ، وتلتفت تلاقيني جنبها في الكرب ، والنبض ينبض في عروقي بألف نغمة وضرب.

نظرت له في صمت، ثم التفتّ شاردة فيمن حولنا بالجريدة جالسين ومتحركين، والأخبار تتوالى والهواتف ترن والكل منشغل بحاله، يكتب أو يتكلم في الهاتف أو ينزل خبرا جديدا على الموقع الإلكتروني، فقال لي قاطعا شرودي:

- احتاطي لنفسك.

نظرت له وأنا أومئ برأسي موافقة ،ثم نهضت وتركته، متوجهة لوسط البلد، كي أشتري حقيبة سفر كبيرة تلزمني.

* * *

(١٣)

" لماذا ترفضين أن تحكي عن حبيبك؟ " .

تردد سؤال "ريتشارد" بذهني وأنا أتأمل "منى" وهي تكلّم خطيبها في الهاتف، تتغير طريقة المرأة عندما تتحدث مع رجلها، قد تميل برأسها قليلا، مطرقة وكأنه أمامها بينما هو على الطرف الآخر يسمع صوتها الناعم الخفيض ولا يراها، للمرأة ابتسامة معينة خاصة بحبيبها غير ابتسامتها مع غيره، ولمعة العين دوما تشي بالسر.

كانت نضارة وجهها وهي تكلمه وابتسامتها الحلوة تكفيني كي أبتسم من قلبي في رضا، حاولت تذكّر حالي مع "رجلي"، فوجدت أنه كان غير معتاد، لم يصبني معه رجفة القلب والإلحاح على الوجود ولا أي مشاعر حادة مطلقا، لم نتبادل كلمات العاشقين المرسومة بحرفة، ولا أذكر أني رددت له كلمة "أحبك" سوى مرات معدودة جدا، لكني كنت أضحك من قلبي لدعاباته وتعبيراته وطريقته في التعبير عن نفسه بلغة جسده، اعتدت أن أضحك ضحكات عالية، وغير مفتعلة تثيرها البهجة، نظرت لأختي وهي تختم مكالمتها بغنج مرددة:

- لا إله إلا الله.

فسألت نفسي هل هذا هو الحب في الثلاثينات وفرقه عن حب العشرينات؟ أن تشعر بالاستقرار والنضج، ويكفيك هذا أم إني لم أحبه كما كان يظن؟ كان هو أكثر خبرة مني بالحياة، وعدني بأن أشعر تلك المشاعر ثانية مع غيره مثلما شعر بها هو قبلا مع غيري.

أذكر مرة بعد شجار وزعْم هجر قال لي ببساطة أغاظتني:

- ستكونين مع من هو أفضل مني، أي رجل غيري سيكون أفضل مني بالنسبة لك.

قبل وبعدا نشغل بالنا وكأننا نملك تماما رسم الخطى!

كنت أعرف كذب كلماته، كنت موقنة أنه يوم أتزوج وإن كان هو بأحضان أخرى، سيقتله الفضول كي يعرف كل شيء عن زوجي، وسيضعه معه في مقارنة في كل شيء، بدءا من لون البشرة وانتهاء بموديل السيارة!، سيهدأ بالا عندما يؤكد له غروره أنه الأفضل وسيتمنى لي نبله الخير!

لماذا نجد السلوى في تصور حياة الآخر بعدنا؟، وكأنما سعادته ستنتقص من رضانا أو تعاسته سترضي كرامتنا، كيف لا ندرك أنه من الغباء أن نستسلم لذلك السؤال الأحمق، "ماذا لو؟".

ألم تعرفنا الحكايات أن تلك هي خديعة الحب، كل مرة وكأنما هي الأولى، وأشباح الراحلين، تستحضرها ظنوننا المزعجة، بينما كل الموجودات من الأحرى بها أن تتلاشى في حضرة الحبيب.

أفعل التفضيل التي أفسدت علينا الحياة التي لا نملك مسارها، هوسنا بالأول والأفضل والأجمل والأعمق! متناسين أننا نتحرك مع كل الموجودات مرتحلين على طول الطريق، لا اللحظة تجمدنا ولا داخلنا يجمد عند اللحظة مهما بلغت قوة تأثيرها، والذكرى أثرها أضعف من الحاضر إن استسلمنا له بالقدر الكافي كي يدهشنا، لكنها الخبرة التي تخلّفها بنا التجربة وتدفعنا للمقارنات التي تشغلنا عن الاستمتاع.

أنا بدوري لم أبرأ من شبح الأخرى التي سيكون معها بعدي، وبنفس قدر الحمق رددت له أنه سيصير مع امرأة غيري أفضل، قلت له:

- ستكون معها أفضل مما أنت معي؛ لأنك أدرى من عرفت بعيوبه، وستخشى إن لم تقوّم نفسك أن ترحل وتتركك؛ لأنك تؤمن يقينا بأنها لن تبقى.

وإن كان ظنّ غيرتي هذا صحيحا، ألن تكون تلك سخرية قدرية أن ذلك الرجل الذي يعتبر كلمات الغزل به غنج زائف لا يرضيه، ومعاملته بالحسنى ادّعاء أجوف لغرض ما، هو من سيقضي حياته غنجا وادعاء!

لكن القدر لا يسخر منا، القدر يعطينا ما نريد، ونحن ليس كما يرانا الآخر، نحن كما نرى أنفسنا، وظنونه وظنوني عن آخرين كان مبعثها أننا نعرف أن تلك هي الحياة، فلم أكن أنا الأولى بحياته، ولا كان هو بدايتي.

والسؤال هو هل نفقد عذريتنا تماما بالتجربة أم إنه بالحياة دوما ولوج لم نجربه بعد؟ تلك الأسئلة التي أخطّها الآن كانت هي فعلا ما يدور بذهني وقتها، وقد كانت مرحلة أسائل فيها أكثر ما أخبر، وكأنني تلميذ بليد لا يعرف أيا من الإجابات، أو لا يملك الوقت للتفكير بها، كنت منشغلة بكل شيء ومنغمسة مع "منى" ورتبت لها يومها مفاجأة كي أدخل السرور على قلبها.

فاحتراما للميت ولمشاعر والدي ألغينا ليلة الحناء، ورتبت أنا سرا ليلة بسيطة لصديقاتي نحتفل فيها بـ"منى" في بيت صديقة لي تدعى "ابتهال " .

غادرنا البيت بحجة الشراء وقضينا ساعتين في بيت صديقتي أدخل فيهما الفرح على قلب "منى"؛ كي لا تكون قد حرمت من طقوس ليلة الحناء، فلقد تحوّل فرحها من فرح كبير لحفل استقبال بموسيقى هادئة كلاسيكية وعشاء للمدعوين الذين قلّصنا عددهم؛ لمعرفتنا أنه لن يحضر أحد، كنت أعرف أهمية تلك الأشياء بالنسبة لها كفتاة صغيرة تمر بكل تلك الطقوس لأول مرة بعمرها، وكانت دوما تحلم بها. لذا فقد رتبت كل شيء مع "ابتهال"، قمت صباحا بالاتفاق على ما سأرسله لبيتها وقد كانت علاقتي بها تسمح بأن أعتبر بيتها بيتي، وقد كانت هي نفسها عروسا جديدة لم يمر على زواجها عام بعد، فكانت جلستنا ليلا مبهجة ببيت دخله الفرح حديثا احتفالا بفرح جديد.

على صوت منير الذي أعشقه وكلمات "يونس" التي غناها واصفا حال شبابنا المغترب عن وطن سلبه الحرية والإمكانات

المادية، ففقد القدرة على وعد محبوبته، تمايلت أنا، راقصة في جزل، محررة روحي من كل ما علق بها من توتر في الأيام الماضية.

احتضنت "ابتهال" في حب شاكرة، مودعة إياها لآخر مرة قبل سفري وفي طريق العودة أخبرتني "منى" بمدى قلقها من ليلة الدخلة والحياة الجديدة وكل ما سيترتب عليها.

كنت أكبرها بالعمر وبالتجربة، ورغم كوني مطلقة إلا أني لطالما سخرت مع أصدقائي أني أريد أن أكتب كتابا عن أسرار الزواج الناجح، كان لي دوما منظوري المختلف للأمور، وقد كان بإمكاني أن أعبّر عنه بثقة لو أني أيامها تمسكت بثقتي بنفسي ولم أتشتت في حيرة لا داعي لها.

لكن وأنا مع شقيقتي أنصحها قبل رحيلي أخبرتها بأننا في مجتمعنا الشرقي نردد تلك الكذبة ونصدقها وهي أن الزواج هو قفص وقيد، وبداية لتعاسة وهم، على الرغم من أن غالبيتنا يدينون بديانة تركت لنا حرية إنهاء الزواج والعودة إليه لا مرة واحدة بل ثلاث مرات!

— إننا لا نؤمن بالسعادة فلا ننالها.

هذا ما قلته لها يومها، وقلت لها إن الرجال يحتاجون إلى الذكاء في التعامل لا الألاعيب، الألاعيب تصلح للحب والحب حالة، لكن الزواج حياة والألاعيب لا تصلح للحياة، الصدق والإدراك هما ما يصلحان لها.

نصحتها ألا تستمع كثيرا للمحيطين ولا تتركهم يؤثرون على حياتها:

الزواج رجل وامرأة والله قبلهما.

كنت سعيدة أن "منى" ارتبطت برجل تحبه، كنت مؤمنة أن الحب يهوّن تلك الأمور التي نصادفها بالحياة وتكون غير محسوبة أو متوقعة، وخصوصا الابتلاءات، وعلى الرغم من كوني أيامها قد وصلت لأقصى درجات الشك في كل شيء، حتى الحب الذي لم أدرِ وقتها هل هو أمر حقيقي أم إنه شعور متخيل تدفعنا إليه الغرائز والاحتياجات، كما عبّر نزار عنه قائلا إنه "بعض من تخيّلنا لو لم نجده عليها لاخترعناه" إلا أني قلت لشقيقتي بإيمان استحضرته من أيامي الماضية:

— الله محبة، والمودة التي تشعرينها تجاه رجلك هي أحد آياته في الأرض كما وصفها هو.

نظرت لي "منى" بعيني وكأنها تعرف سري يقينا وسألتني بغتة:

— لماذا تسافرين؟

وجدتني دون تفكير أجيبها:

— لا أعرف.

ثم صمتت للحظات عندما سمعت إجابتي اللاإرادية، وهربت من عينيها بالتطلع من نافذة السيارة وقلت معلقة على الخيام المنصوبة بالتحرير:

— الحمد لله أن زفافك يوم السبت لا الجمعة أو الخميس، غدا جمعة الإصرار والمطالبة برحيل شرف، ولو أني أظن أن المعتصمين سيبيتون والسبت هو الآخر سيكون يوما مقلقا، سنبدأ تحركاتنا كلها باكرا جدا، إن شاء الله سيكون يوما جميلا.

لم تعلق شقيقتي على هربي من التفكير ولا كلماتي التي قلتها، كان هاتفها يرن، وأجابت هي رجلها وظللت أنا شاردة في الأحوال.

* * *

(١٤)

هناك وقت ما بين معرفتك أن الآخر قد رحل وإدراكك لتلك الحقيقة الواقعة بالفعل، وقت تحاول فيه تجاهل ألمك أو المبالغة في التعبير عنه، وربما تحاول تدارك الموقف إن أمكن أو تزيد الطين بلة بالكبر الذي لا يعبر عن حقيقة رغبتك، وقت يمر بصعوبة وببطء، ثم في لحظة ما غير محددة، تدرك أنه لا عودة وتصدمك تلك الحقيقة صدمة أخرى وتعيد مشاعرك حساباتها وتذهب بك إلى مناطق أخرى من الوجع، الندم، الافتقاد أو الادّعاء.

الشفاه مطبقة والريق الجاف علقم، وأين أثر الشهد إن كان رحيقه بعيدا عن التنسم؟ والذكريات غير الملموسة بالنسبة لحسيتي لم تكفِ، كم أردت أيامها رؤيته، أو حتى التيقن من أني قد أقابله ثانية، التعلق يقتلنا إن كانت الحكاية لم تختم بعد.

كان هو مدينا لي بحكاية وكنت أنا مدينة له بإجابة سؤال، لكن السفر كان أمرا نهائيا ورحيله كان أمرا واقعا، وأنا علقت بين الأمرين منذ عرفته.

يوم زفاف شقيقتي، كان قد مرّ أكثر من أسبوع على اختلافنا ورحيله.

وأنا أتطلع لنفسي في ثوب السهرة الأسود بعدما أنهت الماكييرة تزييني، رأيت نفسي في المرآة الطولية بغرفة الفندق كما كنت تحديدا، امرأة جميلة صغيرة وتبدو أصغر من سنها بعينيها لمعة تخفي أسى، وبوجهها ابتسامة، مسافرة متاعها قلبها وأحلام تحلق فوق رأسها، تصالحت مع الماضي وتركت على ظهره بعضا من أثقالها، وترك هو ندبات بروحها تمثل عمرها الحقيقي.

في ذلك اليوم تحديدا شعرت بأن الأمر قد قضي وأني مسافرة فعلا، وأن كل الأشياء قد حدثت بالفعل.

وكان الزفاف هادئا وجميلا وبدت "منى" كأجمل عروس بنظري، وبدوت بجانبها جميلة، وكم رددت هي أن الفارق بين عمرينا غير ملحوظ، ولم تكن هي وحدها محط الأنظار ليلتها، أنا الأخرى شعرت بأني محط الانتظار والأقوال أيضا.

فمن العائلة من أبدى استياءه لقرار سفري، ووافقت تلك الأحاديث هوى أمي، وعلى صوت الموسيقى الهادئة على دائرة مستديرة جرت أحاديث الكبار بين انتقادهم لتصميمي على

السفر ورفضي لفكرة الزواج ثانية، ثم تطرق للأحداث الجارية وانتقاد المعتصمين في التحرير الذين يتعجلون تغييرا لن يأتي ما بين يوم وليلة .

- رحيل مبارك لا يعني سقوط النظام، الحال كما هو.

هذا ما قاله خالي رجل الأعمال، ورددت أنا عليه وقلت كي أرد على كل من لام والدي في انتقاد واضح لموافقته على سفري وتغريبي :

- من أجل هذا يعتصم كل معتصم ووسط كل ما يحدث لا عجب أني لم أجد عملا بعد وانتهزت فرصة السفر، أي فرصة متوقع أن أحصل عليها إن بقيت؟! البلد شبه مشلول، وكلمة شرف جاءت مخيبة للتوقعات وكل الفئات بالميدان، والإخوان والسلفيون دخلا أمس في صراع، وانتخابات النقابات استحوذ عليها الإخوان، وبقية الأحزاب كل له توجّهه، مصر بلا رجل يحكمها حتى تلك اللحظة، ولا يدري أحد ما مصير الانتخابات!

- أنتم جيل متعجل، أصررتم على تنحي مبارك ولم تمهلوه حتى الانتخابات القادمة، وتسبب قصر نظركم في الفوضى التي تدفعون أنتم اليوم ثمنها.

هذا ما قاله خالي الآخر وشريكه في العمل، فوجدتني أدافع عن جيلي بحماسة:

- نحن جيل له ظروفه الخاصة، افتقدنا القدوة بظلم فادح، نحن جيل ولد في نهايات السبعينيات وبداية الثمانينيات حيث الآباء والمعلمون وكل الكفاءات التي تلزمنا قد سافر معظمهم؛ هربا من المناخ المادي والاجتماعي غير المهيأ إلى دول الخليج، وهنا بالداخل انهار النظام التعليمي بالتدريج، وعلى أغلب الظن عن عمد، الفجوة بيننا وبينكم فجوة عمر وافتقاد، شَغَلكم النظام السابق بالبحث عن الدخل الثابت في الخارج أو صراع الحفاظ عليه بالداخل، ضحيتم بعمركم من أجلنا في غربة داخلية وخارجية كي تعطونا ما يلزمنا من الماديات، لكن ليست الماديات هي كل ما نحتاج.

وافق كلامي هوى ابنة خالي التي تماثلني في العمر، وعقّبت على ما قلت مناقشة أباها:

- إن منظور كل منا للأمور مختلف تماما؛ لأننا نختلف عنكم زمنا وقناعة، لقد قضيتم أنتم نصف عمركم الثاني خانعين تحت حكم مبارك، بينما نبدأ نحن نصف عمرنا الثاني بمحاولة إسقاط نظامه.

فسألنا بسخرية:

- وهل نجحتم؟

قلت أنا بهدوء:

- نحن لا نختار زمننا ولا وطننا ولا آباءنا، لكننا نختار مصائرنا، وعمر الأفراد يقاس بالسنوات بينما عمر الشعوب يقاس بالعقود.

وأكدت ابنة خالي على كلامي:

- الأمور لن تحل في عشية وضحاها.

قال لها أبوها:

- قولوا لأنفسكم، لو أنكم مثلنا في سوق العمل وتلمسون ما فعلته تلك الثورة من أثر سلبي على الاقتصاد والأوضاع لآثرتم العمل بدلا من الاعتصام في خيام، ولتركتم

لشفيق أو شرف الوقت الكافي كي يحاولا إصلاح الأوضاع، لكنكم لا تصبرون، البلد تحتاج العمل لا الاعتصام، من يحكم مصر لن يملك عصا موسى، وفرعون لم يرحل بعد.

كادت أن ترد عليه لكن قاطعتنا "منى" التي وصلت لمائدتنا هي وزوجها من أجل الصور الجماعية، وقفنا جميعا متموضعين للصورة، ووقفت أنا جانب شقيقتي محتضنة إياها، مدركة أن تلك الصورة تحديدا هي ما سأضع جانب فراشي وأنا خارج مصر وحدي.

***

الثالث

(١٥)

إنك تعيش عمرا بأكمله بحكاياته وأحداثه التي تبدو في نهاية الأمر أصغر من أن تشغل بالك أو تستنفدك، تأخذ منه الحكمة، وتتركه كماضٍ ولى وتمضي مع الحاضر نحو الغد.

ثم تعيش حكاية بسيطة جدا لا تجد لها توصيفا أو إطارا، تستغرق من الوقت أقل مما أردت أنت لكنك قد تعيش العمر تحكي من خلالها.

تتسلل أشياء إلى داخل محيطنا أكثر من غيرها، قطرة حبر في إناء الماء تغير لونه للأبد، وتظل الخربشة على الإناء كعلامات تعبر عن مجرد أثر ما.

قد يكون التناسي هو أول طريق النسيان، لكن الأثر داخل المحيط أو خارجه يظل موجودا مهما تجاهلناه.

كذكرى آخر يوم رأيته به قبل رحيله، وقد كنا وكعادتنا في الشهور الأخيرة وبعدما زعمنا أننا قد قررنا البعد التام –بينما نحن لم نبتعد أبدا بالقدر الكافي– ما بين القطاع ووصل.

كان نمط علاقتنا على النحو التالي، يطلبني هو كي نشرب القهوة معا أو نتناول الغداء أو العشاء، ولا أرفض أنا، أترك أي شيء وكل شيء من أجل سويعات قليلة أقضيها معه، فقد كان له مقدرة غير مسبوقة على جعل الوقت معه لذة لا تنتهي وراحة لا توصف.

على عكس كل شيء آخر بالحياة في تلك الأيام لم تكن صحبته لقتل الوقت، بل كانت في واقع الأمر لإحيائه.

نتقابل وتمر الساعات كلمحة، وعندما ندرك مقدار رغبتنا في أن نكون معا، بينما نحن قد قررنا أننا لا نريد أن نكون معا، نتشاجر، نبتعد ويمر الوقت غير الكافي لنعود ونلتقي من جديد من أجل فنجان قهوة آخر، ونعيد الكرة.

يومها كنت ذاهبة للمسرح لأشاهد عرضا تمثل به صديقتي "ماريان" لمسرحية مستوحاة من قصة سيدنا يوسف، كان عملاً مدهشا، كما قيل لي، أبدعه مخرج شاب وفرقة مستقلة، هاتفني هو وأنا أستعد للذهاب وببساطتنا المعهودة معا سألني عما سأفعله في ليلتي، وأجبته بأني ذاهبة للمسرح مع أصدقائي، عرضت عليه أن يحضر المسرحية معنا وعرض هو علي أن

أذهب معه لحفل مدعوّ إليه، وانتهى بنا الحال وحدنا نتناول العشاء بالمطعم، كذبت على أصدقائي كعادتي واعتذرت بعذر واهٍ، فقد كان هو الرجل الذي لا أذكر اسمه لأحد، فبأي توصيف كان من الممكن أن أسرد ما كان بيننا؟ كنت فقط أنكر أن بيننا أي شيء يستحق الذكر.

وقد كان، هناك ما يستحق الذكر، إن كان هناك ما يستحق الغيرة، الغيرة التي كان يغارها كل منا على الآخر، ويأبى كبرياء كل منا عليه أن يعترف بها ولو لنفسه.

كان هو يراني امرأة جميلة، جذابة، تثير الطمع، ومطلقة يثير أي تبسط منها مع أي رجل أيا كان، الظنون، طبيعته المتشككة في كل شيء لم تتوافق مع وضعي الفعلي، الرجل الذي سبقه إلى حياتي وكل رجل آخر طلب ودّي أو أراد الزواج مني بعد انفصالي، هواجس كانت تسيطر عليه معظم الوقت.

وكنت أنا أراه رجلا ذكيا، وسيما خفيف الدم سريع البديهة، ودائم المغازلة للنساء وجاذبا لهن، لم أكن أبدا امرأة متشككة لكن استفزازه الدائم لي كان يحفزني، ولم أسمح لنفسي بإخباره

بما أشعر به تجاهه أبدا ولا هو بقوة شخصيته كان يستسيغ تغزلي به.

كان كعادته أكبر من الكلمات ولقد قلنا كل شيء إلا تلك الكلمات المعتادة بين الرجال والنساء، ولقد هرب مني هو طوال الوقت إلى نساء أخريات أو ذكريات أخرى أو هواجس وتساؤلات وظنون، كان دائما معي وليس معي وبقيت أنا بجانبه أو بعيدة عنه، صامتة متحيرة، كأني أنتظر شيئا ما لا أدري كنهه.

لكننا كنا نعود كل مرة بنفس الطريقة، وكأن شيئا لم يكن، فقد كان اللوم يبدو فعلا سخيفا لا يناسب حقيقة ما نشعر به، فالحقيقة أن كلا منا في واقع الأمر كان مدركا لكل إجابات التساؤلات ودوافعها.

لكن الألم كان حتميا لكلينا، وقد كان هذا الألم أحد دوافعي لقرار الهرب، لكنه لم يكن يعرف ما قررت، وهناك بالمطعم جلسنا كعادتنا ما بين مقاومتنا أن ننجرف ورغبتنا الجامحة في الانجراف.

– ما أخبار شغلك؟

سألته فأجابني:

- زفت، تخيلي ولا مخطط واحد سار كما أردت، البلد مشلولة تماما، والفساد لم يزل قائما، ووهم كون النظام قد سقط، أي قصاص يدعون له تلك الجمعة؟ نحتاج إلى اجتثاث.

ثم وهو يصب الماء في كأسي ثم كأسه أردف:

- بمناسبة الشغل، لقد غيّرت مقر مكتبي، صاحب البيت طلب رفع الإيجار مع العقد الجديد فتركت المكتب القديم، مخبول ذلك الرجل، أي زيادة كان يتوقعها مني، في ظل الظروف الحالية السارية على الجميع؟! قطعا له غرض ما، أراد إخلائي لسبب ما.

غمغمت أنا بموافقته وأكمل هو سائلا:

- أتريدين رؤية مكتبي الجديد؟ مري علي يوم السبت صباحا، أبدأ أنا والموظفون في الذهاب في حوالي العاشرة.

ابتسمت مجيبة في هدوء:

- كلا، الأفضل ألا أفعل، مبارك عليك على كل حال.

لم يعلق، وأكمل حديثه الذي فتح لي أنا روافد عدة للحديث ثم قطع كلامنا رنين هاتفي، أمسكته ونظرت به ونظر به هو الآخر وبدأنا:

- لماذا يكلمك هذا الرجل؟ أليس هذا هو الذي حاول مغازلتك فيما قبل؟

بضيق قلت أنا:

- لمّح فقط، حاول ولم يستطع تخطي حدوده، وهو ليس بصديق وبيني وبينه عمل، وأنا قادرة أن أجعل من أمامي يحترمني باحترامي لنفسي.

زاد ردّي من غضبه وبدأ الجدال بيننا، ما بين حديثه عن استهتاري أنا وإصراري على تجاهل ما هو بديهي وبين اتهامي له بالشك ورده هو علي، وتصميمه أنه لا يشك أو يغار، هو فقط يتعجب من شخصيَ وفكري!

ثم فجأة غيّر وجهة الحديث كعادته عندما سألني عن كتابي، وقبل أن أجيبه رن هاتفي برقم لا أعرفه فنظرت له وآثرت الا أردّ فسألني هو فورا:

- ألم يدخل حياتك أحد بعد؟

هززت رأسي نافية فسألني مثل كل مرة:

- لماذا؟

وعدنا ساعتها للجدل المعتاد، كان يسألني عن سبب رفضي للزواج، فأجيبه بأني أعطي نفسي وقتها فلا يقنعه ردي ثم يسألني عن سبب طلاقي، فأرد عليه بأن هذا أمر قد مرّ عليه وقت طويل وأنا لا أتحدث عنه؛ لأنه لم يعد يهم ولا هو بوجداني، فلا يصدق ردي، وعندها نبدأ لعبة التخمينات، يطلق مائة تخمين عما أصمت عنه وأسخر أنا من كل تخميناته.

غضب وقال لي:

- تتعمدين دفعي للجنون بألاعيبك، لا تكفين عن الكلام فيما لا يفيد، وتصمتين عما قد يريحني، تراوغيني طوال الوقت وتتعبيني.

- أنت من تتعب نفسك.

- لماذا لا تكوني مباشرة وصريحة معي وتجيبيني عما أسأل؟

- لأنك لا تصدق أيا من إجابتي.

- أنت من تراوغين.

- لا أراوغك ولا أريد منك شيئا واطلب الحساب، دعنا ننصرف.

وبينما نحن بطريقنا للخارج نكمل شجارنا المعتاد:

- تصممين على إثارة شكوكي بك وتعودين لاتهامي بالظنون، أتظنين أني لا ألاحظ ما يحدث حولي، هل تتوهمين غفلتي؟

- ماذا تعني؟

- الرجل داخل المطعم الذي كان يبادلك النظرات.

بغضب قلت:

- لم أبادل أحدا النظرات، أجبرتني حملقته بي على النظر إليه، ظننته لبرهة شخصا يعرفني، لم أعتد منك إهانتي!، ما الذي جرى لك، هل جننت؟

بسخرية قال:

- أنت لا تقاومين، يحملق بك كل من يراك.

بسخرية رددت عليه:

- نشكل ثنائيا ملائما إذاً، رجل خلاب وامرأة لا تقاوم، أوَلست أنت الخلاب الذي تتمنى النساء اصطياده كزوج، بما فيهن أنا كما تخبرك افتراضاتك؟!

كاد يبتسم وكدت أنا أسأله، "أي عبث هذا؟! لماذا نتشاجر؟" لكني لم أفعل وفجأة سألني بصوته الهادئ العميق الذي أحب رنينه عندما أسمعه كأنه آتٍ من داخله، ذلك الداخل الذي عشقت تلمس جدرانه:

- لماذا أذهب وأعود لأجدك لم تزلي وحيدة؟

هربت من عينيه كعادتي وأجبت عن السؤال بسؤال:

- هل سيريحك أن تعود لتجدني قد ارتبطت بغيرك؟

بانفعال مفاجئ قال:

- كنت أعرف، كنت أعرف من يوم قابلتك من أجل العمل أن كل هذا سيحدث؟ بديهي للغاية!

مستفزة جدا من غروره بدأت في السخرية:

- ومن أجل هذا رفضت تعييني عندك؟

ببساطة أجاب:

- كلا، رفضتك لأنك لم تناسبي متطلبات عملي.

بسخرية مريرة قلت:

- لم أناسبك أبدا على أي مستوى، لكن على الرغم من هذا كلمتني بعد المقابلة وقابلتني!

كان يمنع يده من أن تمتد لوجنتي ليمسكها وسألني كاللائم:

- لماذا وافقتِ ؟

- ولماذا تطلبني كل مرة؟

زفر في غيظ حقيقي، كان بداخل كل منا نار لا يعرف كيف يطفئها، وبالسيارة كان بقية حوارنا:

- أتظنين أني لا أفهمك؟ أو لا أدرك دوافعك؟

- ألن تكف عن غرورك هذا؟

- كلا، لن أكف، ولماذا تتحملينني؟

دون تفكير صحت به:

- لأني أحبك أيها الأحمق، وأنت لا تريد امرأة تحبك أنت تريد امرأة تعود لتجدها بأحضان آخر، فترقص ظنونك طربا لصواب منظورها.

فردّ علي بقسوة لا تلائمه، وبلهجة بين الجد والهزل:

- وأنا لا أحبك، لماذا لا تدركين هذا؟

دون تفكير وبسخرية قلت:

- جيد أنك لا تحبني، لن تفتقدني إذاً عند سفري.

في هدوء الصمت الذي ران لبرهة أدركت طيش ما فعلت، كانت كبيرة من الكبائر أن أكذب أو أخفي، وكي أكون منصفة لم يكن هو متحكما بي أو مجبرا، كان صدقي معه احتراما له كما أنه ألزم نفسه بالصدق تجاهي، ولم يخيب ظني فيه ولو مرة واحدة.

بغضب وتعجب سألني:

- تسافرين! إلى أين ولماذا؟

بصوت حاولت جاهدة إخفاء اضطرابه وجعله يبدو ثابتا أجبت:

- للعمل.

بحزم سألني:

- متى تم هذا؟

نظرت من النافذة هاربة من مواجهة نظره ولم أجب، فأردف هو:

- ومتى كنت تنوين إخباري؟ هل كنت تنوين إرسال لي بطاقة بريدية من الخارج؟!

لم أرد على سخريته وظللت مشيحة بوجهي، وبدأ صوته يعلو:

- منذ متى تخفين علي؟ وكيف أخفيتِ عليّ أمرا كهذا؟

رددت أخيرا:

- منذ صرت أنت غير موجود.

قال بغضب:

- لم أغب عنك أبدا، وكما سخرت لتوك أعود للسؤال عنك وقرار البعد كان قرارنا معا، ماذا كان من المفترض أن نفعل؟ إلى أين سنصير إن كنا لن نصير معا؟

بضيق حقيقي اعترضت:

- لقد مللت مناقشة هذا الأمر، مللت الحديث عنه والبحث عن إجابات منطقية لهذا الشيء غير المنطقي، ارحمني، ثم ماذا يضيرك في سفري؟ بنهاية العام ستسافر أنت الآخر.

- مسافر وسأعود، أنت مسافرة لتبقي هناك، تعرفين أنت بسفري ولا أخفي عنك شيئا بينما تخفين أنت؟ لا أصدق أنك فعلت هذا! كيف أخفيتِ علي، أنت! وطوال هذا الوقت. وتعرفين أنه لا يستفزني شيء بعمري قدر الكذب.

بحنق قلت له:

- ومتى صدّقت أنت أيا مما قلت؟! تدفعني للجنون دفعا مؤخرا، ولم أعد أدري ماذا أفعل؟!

- لا تفعلي شيئا، سافري، اختفي، ولا تنظري وراءك.
- هل هذا ما تريد؟ هل هذا ما سيريحك؟
- هذا قرارك، ولقد نفّذته بالفعل، دون علمي، فلا تراوغيني كامرأة.
- لم يكن قرارا ولا كنت أنت اختيارا وأنت لا تفهم شيئا بالحياة ولن تفهم.
- أنا فعلا لا أفهمك، ماذا تريدين؟ ماذا تريدين مني؟

بكل الانفعال الذي كتمته لفترة طويلة قلت:

- لا أعرف، أنا لم أعد أدري ما أريده، لقد أصبتني أنت باسوأ ما يمكن أن يصيب المرء، أصبتني بالحيرة، في البداية كانت رفقتك أجمل من كل شيء، لكن هذا لم يكفِ، لا شيء يكفيك ولا وضع يريحك، وأنا محتارة بك وبما أشعره تجاهك وبوضعنا الذي لا أفهمه، أنت مريح كسكن، ثابت كرجل، ثم يمسك جنون الشك والخوف فتميد الأرض بنا وأضيع أنا من بين يديك، ولم أعد أدري ما أفعل؟!

قال مكملا بلهجة بدا فيها مرارة شعرتها بحلقي:

- فقررت السفر؟!

بهدوء أجبته:

- أنت قررت قبله الرحيل، ونحن بالفعل لسنا معا، ألا ترى؟! لم أتركك ترحل عني وتعود ضعفا أو استسلاما ولكن قناعة، قناعة أني لن أجبرك على ما لا تريد كما لم تجبرني أنت.

بنظرته الجادة التي كنت أحبها وقوة إبائه التي كنت أعرفها قال وهو ناظر أمامه للطريق بحزم:

- صدقت لا يملك أحدنا إجبار الآخر على شيء، لا يملك أي منا هذا الحق، افعلي ما شئت، تسافرين بالسلامة.

كنت أعرف لحظتها أننا ننتهي، وكم وددت البكاء لحظتها لكني أمسكت دموعي، وكم وددت لو أعتذر له أو أتوسل إليه أو أقول له أي شيء، أي شيء مما قد يقال، كعادة كل الرجال والنساء قبيل الرحيل عندما يتبادلون كل تلك الوعود الكبيرة التي تأتي بعد فوات أوانها، أو يهددون بذلك الوعيد الأجوف الذي تنقضه الأيام، ويتبادلون الاتهامات بكل تلك الأكاذيب وإلقاء اللوم على الآخر الذي لا يفيد في شيء، كان من الممكن أن نقول أيا من تلك الكلمات، لكن وكالعادة بدت الكلمات معه سخيفة ولا مبرر لها.

يتشاجر الناس لأن كلا منهما يريد تغيير الآخر، بينما الشجار ليس هو الطريق الأمثل للتغيير وحيلتي كانت أقل مما أردت، ومما تصور هو، ووضعي الفعلي هو أمر خارجا عن إرادتي، والوقت كان هو كل ما أملك لأعطيه، وهو لم يكن له صبر على الوقت، والأدهى أنه كان يخشاه وعندما غادرته يومها كان هذا آخر عهدي به، وفي اليوم التالي صباحا عندما طلبت هاتفه لأجده مغلقا كنت أعرف أن هذا هو الرحيل الأخير، فالمرأة غالبا هي أفضل من تعرف رجلها.

* * *

(١٦)

لم تحضر "كوثر" زفاف "منى" ولا أجابت أيا من اتصالاتي؛ للاطمئنان عليها، وأقلقني هذا بشدة فكلمت "حلا" للاطمئنان عليهم، في البداية ظنت "حلا" أني أكلمها بدافع طلب من أمها، ودهشت أني لا أعرف شيئا مما حدث، وقد قابلت "حلا" وعرفت كل ما حدث .

" حلا " ستتزوج إنجليزيا، غير مسلم، زواجا مدنيا وستعيش معه بإنجلترا وهي تحضّر للزمالة والدكتوراه.

وهي تحكي لي، جلست أمامها صامتة أحاول استيعاب ما تصارحني به وتخطي دهشتي وأفكر في "كوثر" وحالها في ذلك الوقت، ودخلنا أنا و"حلا" في حوار طويل جدا، عن الزواج والمجتمع والدين والإسلام والغربة والدراسة وكل شيء.

فارق العمر بيني وبين "حلا" صغير، وهي طبيبة وتدرس في الجامعة، مما يعني أنها شخصية عملية وتدرك خطواتها، لم تكن أبدا فتاة بحاجة إلى أن أبصّرها بما هو غافل عنها، لها إدراكها الواعي وقرارها لم يكن انفعاليا.

قالت لي وهي ترفع شعرها عن عينيها الخضراوين الشبيهة بعيني أبيها:

- كان يجب أن أسافر في كل الحالات.

عيون خضراء مع بشرة خمرية قريبة للسمار مثل بشرة أمها، وشعر مصري مموج بندقي اللون وغزير، متأكدة أن الإنجليزي يعشق التطلع إليها، وفوق كل هذا طبيبة ناجحة ومثقفة، تخيلتها هناك معه، تدرس هي ويعمل هو ويلتقيان بالمساء ويعيشان معا بأستوديو صغير يكفيهما، كنت متطلعة إليها بعين خيالي بينما كانت تشرح هي لي:

- أمي لا تفهم، المناخ العلمي في مصر غير مهيأ لاستيعاب من يريد النجاح الحقيقي، ليس اضطراب ما بعد الثورة هو السبب، من قبل الثورة ونحن نعاني، لا يتخيل أحد نظرائي بالخارج مقدار المعاناة التي عانيتها للحصول على درجة الماجستير؛ لمجرد أن رئيس القسم شخصية معقدة بطبعها، لا يوجد قانون مطلق يحكم الجميع في هذا البلد أو يردعهم، أنت عرضة للمعاناة من عقد الآخر ونقائصه ما دام هو على كرسيه بمنصب يخول له التحكم فيك.

لم أكن أنا معترضة على فكرة دراستها بالخارج، كانت خطوة منطقية ومبررة بالنسبة لي ومتكررة وما تشتكي منه نعرفها جميعا ونلاحظه حولنا ويعاني منه كثيرون على مستويات مختلفة، ولقد كنت أفهم أنا أهمية النجاح العلمي بالنسبة لشخصية مثل شخصية "حلا"، لكن خبر زواجها واختيارها هو ما فجّر المفاجأة الحقيقية التي كان وقعها على "كوثر" مدمرا بمعنى الكلمة، وخصوصا عقب ما مرت به.

- بأي حق ينصحاني فيما يتعلق بزواجي وهما يتطلقان اليوم بعد أكثر من ثلاثة عقود! إنهما لا يتحدثان منذ سنوات، ولا تدرك هي ما يحدث خارج محيطها رغم نجاحها وعملها، لا تواكب ولا تتصور.

ثم أكملت وهي منفعلة:

- تريدني أن أبهر المحيطين بالبيت والديكور والزفاف الذي يتحدث عنه الجميع، إنني أحمد الله أني لم أتزوج "شريف"، لم يكن رجلا ولا يستحق، وأنظر اليوم لحال صديقاتي لأجدهن تعيسات، إما عوانس بمفهوم مجتمعنا أو مطلقات أو

أسرى الشعور بضياع الذات من أجل الآخر منشغلات بحياة اجتماعية وأطفال وأزواج منشغلين أو خائنين.

تغاضيت عن البورتريه القاتم الذي رسمته للحياة الاجتماعية لأبناء جيلنا، وعلقت على تعليقها عن خطيبها السابق:

- جيد أنك تخطيتِ "شريف"، علاقة حبكما استغرقت سنوات من عمرك.

قالت بسخرية مريرة:

- لم أتخطّ "شريف" فقط، تخطيت فكرة أن أكون مع رجل مصري، ما رأيته بعد "شريف" ساعدني على تخطيه، وتخطي جميع أشباه الرجال والبعد عنهم.

أشباه رجال كانوا بالنسبة لـ"حلا" وجلست أمامي تسقطهم واحدا تلو الآخر وهي تحكي، وقد ذكرني حديثها بعبارة كتبتها أنا يوما بمقال أن "الكلمات سهلة والحياة صعبة وسقوط أشباه الرجال أسهل ما يكون " .

بكلماتها حكت لي عن العذرية التي تفقدها مع رجل، وتجعل من الرجال الآخرين طامعين، عذرية الرجل كلمة لا محل لها من الإعراب وعذرية المرأة كلمة توازي الشرف، بينما "حلا" تحكي

لي تذكرت عبقرية "يوسف إدريس" في قصته القصيرة "حادثة شرف"، وقد كنت منصتة بتركيز لكل كلمة تقولها في ذلك اليوم.

- صديقتي ظلت مع صديقها المغربي عاما كاملا قبل زواجهما دون أن يجبرها على شيء، رغم علمه بأنه ليس الأول بحياتها، اليوم هي زوجته وسعيدة معه وتخلص له بكل الحب.

وبتهكم أردفت :

- تقول لي أمي "مصري مسلم"! أي إسلام تعنيه؟، نصف من أعرف يشرب ويزني ويفعل كل ما يريد، أي إسلام هذا! وذلك الذي يصلي ولا يقرب الخمر لا يبحث عمن هي مثلي ولا يسامحها، يبحث عن أخرى توافق منظوره وتوافقه.

كدت أخبر "حلا" على سبيل المثال عن حديثي مع "ريتشارد" عن القطيع الذي يشذّ ليكون قطيعا آخر، وعن التيه الذي كتب على هؤلاء الذين لم ينضموا لأي من الفريقين لكني لم أفعل وقلت لها باختصار :

- أحترمك لثباتك رغم الضغط، خطؤنا لا يجب أن يتحول إلى نمط، والعثرة لا تعني البقاء في الجب، ولتذهب افتراضات المحيطين إلى مثواها الأخير، ألا وهو عقولهم

المريضة وما تفرزه من رغبات وأمنيات شريرة بأن تصيري كما كانوا، كيلا تصيري أفضل.

ببساطة قالت:

- إنني أحب "بن" لا تمردا ولكن حقيقة، أنا لي معه أكثر من العام، وكل يوم أقتنع بعقلي أكثر أني يجب أن أصير معه، إن الزواج هو حياة بأكملها، يجب أن نتوافق فيها كي تصير متجانسة وإلا أشقينا أنفسنا.

وبتهكم وأسى أكملت:

- يستمر البعض في الزواج للأسباب الخاطئة مثل أبي وأمي اللذين استمرا من أجلنا أو مثل صديقتي التي يخونها زوجها وتعرف، لكن لا تستطيع مواجهة المجتمع بلقب "مطلقة".

وفجأة قلبت منحى الحديث لي:

- أنتِ مطلقة وتعرفين ضغط المجتمع.

صمت أنا لبرهة وقلت لها دون تفكير:

- لم يؤثر بي المجتمع وحده، قدر ما أثر بي رجل أحببته.

سألتني:

- رفضك لكونك مطلقة.

أجبت بصدق:

- رفضني لاعتبارات عدة.

قلبت شفتيها باحتقار:

- المصريون.

بانفعال مفاجئ قلت لها:

- لعلمك هو رجل جيد جدا، رجل حقيقي، لا كأشباه الرجال، وهو مصري تماما ولا أعرف ما خطبنا جميعا!، نسب المصريين وكأننا لسنا منهم ونسب مصر وكأنها ليست وطننا! منذ متى صرنا جميعا غير مصريين؟

ثم بهدوء عقبت:

- لا يحق لي لومك وأنا أفعل مثلك، أسافر، هاربة مما لا يرضيني ولا أريد مواجهته، هل تعرفين، يوما ما سألني ذلك الرجل سؤالا منطقيا للغاية سألني إن كان تجنسنا بجنسية وطن لم نختره تفرض علينا الولاء له؟

واستطردت قائلة لها، وأنا أتذكر بحنين جمال أحاديثنا معا:

- نحن لا ندين بالولاء والحب لهذا الوطن ولا لأنفسنا، ولا أدري من منا كره الآخر أولا نحن أم وطننا؟، كنا قديما نلوم على حكم المستعمر، ذلك الذي أتى من خارج أرضنا ليحكمنا طمعا في خيراتنا، بعدما حكمنا أنفسنا، إلى أين صرنا؟

قالت لي "حلا " :

- في الخارج يحترمون آدميتك، فتحترمين وطنك، هنا لا أحد يحترم أحدا.

أجبتها:

- الاحترام يبدأ باحترامك لذاتك، الحكاية ليست حكاية رجل مصري وامرأة مصرية، الحكاية حكاية وطن وإنسانية شعبه المهدرة، أخبريني، ألا ينظر لك الإنجليزي أنك أقل منه؟ ألا يشعره البهارك به وتفضيلك له بدونيتك أمامه ؟

هزت رأسها بحدة :

- " بن " فخور بي ، سعيد بكوني معه ، يراني كما أنا ويدفعني أن أصير أفضل، كل الرجال الذين قابلتهم هنا، يحاكمونني على ما فات أو يودون تحطيم ما هو آت .

بشرود قلت :

- هل يحوّل الرجل امرأته لتصير عاهرة، ثم يبصق عليها وبلده لتصير خرابة ثم يتبول عليها؟

ابتسمت "حلا" لتشبيهي الغريب المفاجئ وابتسمت أنا لابتسامتها، وقلت لها بهدوء:

- لن أدخل معك في الجدل حول الجانب الديني لاختيارك، أنا أؤمن أن كل منا راشد بالقدر الكافي ومسئول عن تصرفاته أمام الله وأمام نفسه، وأنت راشدة بالغة تدركين عواقب ما أنت مقبلة عليه، سواء في الدنيا أو في الدار الآخرة إن كنت تؤمنين بها، المهم أن تظلي متحملة مسئولية نفسك وحدها.

سألتني:

- ماذا تعنين؟

أجبتها:

- إن كنت اليوم ترفضين من أمك وأبيك تصديق النصح لأنك تحاسبينهما على اختياراتهما الخاطئة، وإن كنت اليوم تضربين بما سيحدث لأمك عقب قرارك عرض الحائط، فلا تنجبي أبناء يدفعون يوما ثمن اختياراتك أنت.

هزت رأسها نافية:

- أنا و"بن" لن ننجب قبل خمس سنوات، هذا ما اتفقنا عليه.

تنهدت أنا بحزن وأنا أفكر في "كوثر" وقلت لها:

- الأحرى بساعديك أن يكونا قويين بما يكفي، والأحرى برجلك أن يكون رجلا حقا كما تتصورين، أنت تحكمين على نفسك بالغربة والوحدة معا وتستغنين به عن كل العالم، تحرقين كل سفنك وتقفين وحدك وسط الجزيرة المنعزلة، إن سقطتي ستكونين وحدك.

كادت وبسرعة أن ترد علي لكني قاطعتها مكملة:

- أنا لا أفرق عنك يا "حلا" في ضعفي واختياري الهرب والغربة، لكن تجربتي جعلتني أختار الغربة وحدي دون رجل؛ لأني أعرف ما يعنيه الزواج حقا وأعرف ما يعنيه الطلاق أيضا بالتجربة، هل تذكرين بعد طلاقي ذلك اليوم الذي خرجت فيه أنا وأنتِ كي تختري لي ملابس جديدة؟

ابتسمت "حلا" وهي تتذكر مجيبة بـ"نعم" وأكملت أنا:

- عندما انفصلت أنا عن زوجي السابق كان حولي أكثر من ساعد ليسندني إن سقطت، وعلي الرغم من هذا ارتبكت من ضغط المجتمع والمحيطين وما مررت أنا به بالفعل.

قالت "حلا" بهدوء:

- أنا حاولت كثيرا ألا تصل الأمور بيني وبين أمي لذلك الطريق المسدود، لماذا لا تتقبل حقي في حرية الاختيار؟

قلت لها:

- تعرفين استحالة اتفاقكما على ما اخترت تحديدا، أنت لا تختارين الشذوذ عن قاعدة بعينها، أنت تتحدين كل القواعد بلا استثناء، تحملي أنت حرية اختيارك وتبعاته، أنا أريدك أن تعرفي، أن ما هو أسوأ من عدم الزواج هو الزواج للأسباب الخاطئة، لقد علمتني الأيام والتجربة ألا أحكم على الحكايات ولا أضع لها تصورا، كل الاحتمالات دوما واردة، وأنا أتمنى لك - صدقا- أفضل الاحتمالات، لكنك تعرفين جيدا أنك تقتلين أمك بمعنى الكلمة وتكسرين أباك، وأنا لا أتعجب قسوتك ولا أطالبك بالتراجع عنها، لكني أطالبك بأن تكوني مدركة تماما لما أنت مقبلة عليه، مهيأة إدراكك لكل الاحتمالات الواردة.

بتحدٍّ قالت لي:

- أنا مدركة تماما لما أفعل.

ثم عقبت برجاء:

- لكني حزينة من أجل أمي رغم كل شيء، ولقد قابلتك لأني أريد منك التحدث معها، أنت الوحيدة بين صديقاتها التي تملك عقلا متفتحا بما يكفي كي تسمعني، أعرف أنك لست الأقرب إليها لكنها تستمع إلى نصحك، وقد ظننت في البداية أنها من طلبت منك التحدث إلي.

تنهدت قائلة لها:

- أعرف، وصدقيني حديثي معكِ وكلماتي تلك أرددها لنفسي أولا قبل أن أرددها لك، ومع الأسف لن أكون بجانب أمك المسكينة، أنا مسافرة بعد يومين يا "حلا"، أين تمكثين الآن؟

صمتت هي فلم ألح في سؤالها، وانتهى الحوار ما بيننا مثلما بدأ، كل منا عرفت غاية الأخرى لكنها لا تعرف وجهتها، تركتني هي متوجهة إلى حيث لا أدري، وتركتها أنا متوجهة لبيت أمها

باحثة عنها، ولن أنسى ما حييت شكل "كوثر" يومها، وكلمتها لي بأسى:

- لن تتخيلي ما أشعر به، أنت لا تعرفين معنى أن يكسرك ابنك.

نعم لم يكن لي ابن كي يكسرني أو يصير شوكة في ظهري، كنت متخففة كما يليق بامرأة وحيدة، لكن كما آمنت، لا مطلق، فنحن دائما جزء من كيان ما أكبر، نحن دائمة شوكة في ظهر أحدهم أو أحدهم شوكة في ظهرنا، لا اقتلاع تام من الجذور جميعها، مهما دفعتنا الريح العاتية.

* * *

(١٧)

في اليوم التالي لمقابلتي "حلا" و"كوثر"، وبينما أنا مثقلة جدا بالمشاعر والذكريات، وجدتني دون تفكير آخذ مسودة كتابي وحقيبة يدي وأتوجه لمحطة القطار، أحجز تذكرة ذهاب وعودة إلى الإسكندرية، كلمت "فيوليت" صديقتي وأخبرتها بمجيئي، وأمام البحر بُحْت لها بكل شيء، بكل حكايتي معه منذ البداية، وبكيت، بكيت كما لم أبك من قبل، بكيت كل شيء، كل الماضي بحكاياته التي لم أخبرها والحاضر الذي اضطرني للسفر والرحيل، بكيت من أجل الكلمات التي بحت بها والكلمات التي رفضت البوح بها وسترحل معي في إباء.

- أحببت مجنونا!

هذا ما قالته صديقتي وهي تحتضن ابنها الذي ملّ الجلوس على قدميها، وقرر النزول فقاومته لفترة ثم تركته ينزل للأرض، يقف بجانبنا ويلعب في كافيه ذلك الفندق المشيد داخل البحر، مطلا عليه بشكل ممتع للنظر.

دافعت عنه وعني وقلت لها إنه أعمق مما يبدو وأذكى وأكثر منطقية من كثيرين، وقلت لها إنه ليس بمجنون وإنه وببساطة

حكايتنا منطقية ومعادة ومكررة عن رجل شرقي وامرأة شرقية، بينهما السنوات والتجارب السابقة واختلاف الوسط والنشأة، والمجتمع ومنظوره.

وشرحت لها كيف أني أحيانا أشعر بأنه من المنطقي أن أحب رجلا ينعتوله بالجنون إن كنت أنا الأخرى أنعت به، لكني أعرف يقينا أني لست بمجنونة وأن وصمة الاختلاف هي ما تجعل الآخر يسبك عندما يحتار في فهمك أو يثير غيظه تمكنك مما لا يستطيعه، أعرف أني لست بمجنونة وهنيئا للمجانين فلقد رُفع عنهم القلم ونحن من مسنا الفن، وأنعم الله علينا بالقدرة على الإبداع.. كم كانت حياتنا ستصير أسهل إن كنا نثق يقينا أن القلم قد رُفع عنا وأن الحياة مرتع لنا نعيشها كيفما نشاء، لكننا نعرف أننا مدركون تمام الإدراك لما يحدث حولنا، بل ونحن أكثر إدراكا من الآخرين، وفي رهافة حسنا وإدراكنا تكمن مصيبتنا.

عندها تطرقت "فيوليت" لما يهمها حقا، لكتابي الذي انتظرَت كصديقة صدوره، كانت هي قد سبقتني لتجربة النشر بكتاب ومجموعة قصص قصيرة، وكانت أيامها تحضر لكتاب عن

الأمومة، نشرت لها أكبر دار نشر في مصر في ذلك الوقت، وقد كانت موهبتها تستحق.

- أعتقد أن الرضا عما نكتب مطلب عبثي، وحتى إن رضينا اليوم من يضمن لنا غدا؟ الكلمة التي تقرئينها اليوم ترينها بمنظور مختلف فيما بعد، فما بالك بتلك التي تكتبينها.. خلصت إلى أننا بالأحرى نكتب كي نتعلم وليس كي نُعلم فقط، والمعرفة موجودة من قبل الخلق ووصولنا لها هو الحدث الجديد علينا، لكن ما نصل إليه ليس حكرا علينا وكل شيء موجود بالأصل وتم الوصول إليه قبلا بالفعل.

هذا ما قالته لي صديقتي المبدعة وأردفت:

- لا تستسلمي للعنة الشك بالذات وفقد الإيمان، لقد أفقدك الثقة بذاتك والحمد لله أنه رحل، وقد آن لك أن تعودي لتوازنك، ألا تنتبهين لما فعله بك، التلاحق وتناقض التصرفات والأقوال، ألا ترين أنه أراد إرباكك وحيرتك وإفقادك توازنك، عندها يكون السقوط مدويا.

باعتراض قلت لها مدافعة عنه:

- تتكلمين عنه وكأنه عدو.

ردّت:

- بمنطق شكه كل شيء وارد، وإن كان الشك بالنسبة إليه مطلقا، كيف تستثنيه منه؟

قلت لها بأسى:

- كان يحذرني حتى من نفسه، ولم يؤذني بشيء ولا أخذ مني أكثر من وقتي الذي أحببت قضاءه معه، لم يكن أبدا عدوا ولن يكون.

قالت بتهكم:

- الذئب يرتدي دوما ملابس الجدَة.

باعتراض وتصميم قلت لها:

- إن ما تراه البصيرة هو أصدق ما نرى، لكن كيف نصف ما تراه بصيرتنا؟ كيف ندحض المنطق المتواطئ مع الظنون؟

ثم ابتسمت في حنين شاردة وأنا أذكر:

- أذكر يوما ظللنا نتكلم ثلاث ساعات كاملة عن قصص حياة الأنبياء ومدلولات ما ذكر بها، قلت له يومها إننا كبشر نظرنا قاصر، إننا نرى يوسف السجين ولا نسمع منطقه، ونرى

الآلهة المحطمة ولا نسمع سؤال إبراهيم، ونرى موسى الذي قتل وطُرد ولا نسمع دعوته.

ثم نظرت لعينيها وقلت لها بيقين:

- من أجل هذا صمتّ معه، البصيرة هي ما تلزم كي نرى، امرأة واحدة ورجل واحد أبصرا "موسى" الهارب على أطراف المدينة، ووثقا به، لكن عندما أراد إقناع الحشد لزمته المعجزة، ونحن لسنا بأنبياء يا "فيوليت" وعهد المعجزات قد ولى.

ردت علي هي:

- عهد المعجزات لا يولي لأن خالق المعجزات حي لا يموت، كان من الأحرى بك أن تصيري أنت إجابة كل الأسئلة، كان يجب عليك إثبات ذاتك والنجاح بعملك ونشر كتابك، وتثبتين للجميع خطأ منظورهم.

قلت لها:

- وماذا لو لم نكن الأروع والأعظم والأنجح؟، ماذا لو وقفت الظروف حائلا أمامنا، ألا يكفينا كوننا نحن كي نستحق الفرصة؟ معاييرنا المادية المرهونة بالحالية والتي لا تناسب منظور

الفنان داخلي أفسدت علينا العام والخاص، انظري حولك، كلنا مرتحلين فاقدين الأمل يا صديقتي.

هزت رأسها نافية:

- وماذا يبقى لنا بعد الأمل؟ ومن سيبقى إن كفرنا جميعا وارتحلنا؟ أنت تستسلمين بضعف لا يناسبك، إدراكك واعٍ لما حدث، فكيف تغفلين عن عمد؟

- لا أنكر هذا، لكن الضغط فاق تحملي وتلاحق الأحداث أربكني ولم أجد ولو منفذا واحدا للهرب.

- ولماذا الهرب؟ وممن ستهربين؟ لن يغير سفرك واقعك ولن يمحو ما مضى.

ثم أمسكت مسودة الكتاب وقالت لي:

- ساعرضها على مدير دار النشر.

بسخرية سألتها:

- هل تظنينه سيقبله؟

أجابتني بحزم:

- لن يؤمن بك أحد إن لم تؤمني بذاتك.

قلت لها بانفعال:

- ولماذا أنشر حكمة خلصت إليها من حكايات عرفتها، بينما أنا لم أؤمن بها بالقدر الكافي، أي نفاق للقراء والبشر، هل نكتب دعاية لأنفسنا، أم نكتب من أجل الحياة؟

ردت عليّ بثبات:

- إننا لسنا بأنبياء كما قلت لتوك، والكتابة ما هي إلا وسيلتك للتعبير عن نفسك، كآدمية ومن خلال ضعفك وقوتك تحاولين جعل الآخر يبصر، لتوك قلت، لا يجب أن نصير الأعظم، أشهر لوحات فان جوخ هي التي كان بها مقطوع الأذن، اكتبي ودعي للأيام دفعك تجاه التعلم والمعرفة.

تنهدت أنا ونظرت لكتابي وقلت لها:

- حسنا، لنرى.

وشردت في البحر المواجه لنا للحظات بينما قامت هي وراء ابنها الذي ركض بعيدا وعادت وهي تقول لي:

- اقضي الليلة معنا.

- لن أستطيع، أنا مسافرة بعد يومين، تشاجرت أمي معي عندما عرفت بمجيئي إلى هنا، نعتتني بالجنون، هم لا يفهمون.

- لأنك لا تتكلمين.

التفت إليها مبتسمة قائلة في حب:

- ها أنذا قد تكلمت، لو أن زوجك لا يمنعك المجيء إلي، لو أنه لا يحرمني منك، ربما حكيت منذ زمن.

قالت:

- هو محق في مخاوفه، ألم تقرئي اليوم عن إضراب الداخلية وتمرد أمناء الشرطة، صار الوضع شعبا في مواجهة نظام من المفترض به أن يحميه، لا أمان مطلقا.

قلت لها:

- "العسكري" قهرنا كي يحمينا، أسوأ ما بالأمر أن يكون عدوك من قلبك، أفسدت العقود الماضية الفرصة الكافية لاستعادة الثقة، لكنهم في النهاية منا ونحن منهم .

- أطلقوا علينا الرصاص

- أطلقوه على أنفسهم، فاحترقت البلد.

تنهدت وهي تنظر لابنها:

- أتمنى له حياة أفضل.

نظرت لابنها ولم أعلق وشردت في أفكاري، "فيوليت" أم بالفطرة، ربما لأجل هذا أشعر معها بالأمان الكافي لأبكي

وأحكي، بها قوة وحنان وطيبة أصيلة، شردت في البحر وتذكرت نيل القاهرة وشعرت أني سأشتاق إلى مصر، تلك الجميلة الزاخرة المظلومة بأيدي أهلها، وفكرت لحظتها متسائلة: ألا نشبه جميعا مدننا بشكل من الأشكال؟، استرسلت خواطري وطال صمتي فقطعته هي:

- رغم تدهور الحال هنا، أؤمن أنك ستعودين سريعا، لن تغتربي.

ابتسمت أنا:

- أمنية أم نبوءة؟

ردت هي بابتسامة أوسع:

- يقين.

* * *

(١٨)

من متوسط الإسكندرية إلى نيل القاهرة انتقلت في يوم واحد، وبينما أنا على كوبري قصر النيل، ذكرت يومها ذلك المشهد الذي لا يُنسى للمتظاهرين الواقفين في ثبات أمام عربات الأمن المركزي، أي أمل كان يداعب هؤلاء بعد نجاتهم من الموت؟ هكذا كنت أفكر كلما شاهدت ذلك المشهد.

لم يكن القهر وحده معضلتنا، ولا الضعف وقلة الحيلة.. اليأس كان مصيبتنا الحقيقية، اليأس يقتل كل شيء، اليأس موت بلا بعث، وأنا كنت يائسة كامرأة، نعم، خجلت من كلمات "فيوليت" المشجعة، وتمنيت لو كنت أستطيع رؤية يقينها وأستشعر إيمانها بي، أنا التي لم تؤمن بنفسها.

لم أؤمن بأني بعده قد أقابل من أحب، ولم أؤمن به هو نفسه ولا بنفسي، لم أؤمن أن أحوال مصر ستتغير، ولا حاولت تصديق كلمات "ريتشارد" لي عن مصر، "ريتشارد" الذي صمّم ألا يغادر ذلك البلد أبدا، وأنجب أول أطفاله بها مؤمنا بأن مستقبل ابنته سيصير أفضل من حاضرنا نحن.

فيما بعد عندما طلبت "ريتشارد" لأهنئه بمولودته، سألته، أي نور يراه لمصر وسط العتمة؟ وكيف يراه وسط لهيب النيران؟!، فقال لي بثقته المعهودة:

الطوفان ينحسر، والأرض تبلع ماءها، ويبقى المؤمنون على سطح السفينة.

لم يكن "ريتشارد" وحده من لم يستطع البعد عن بلده، سافر "محمد" ولم يستطع أن يبقى طويلا خارج مصر، فيما بعد اكتشفت أن من هم أكبر سنا أكثر إيمانا بوطننا منا نحن الأصغر سنا، فكما قلت لخالي: نحن جيل كانت ظروفه صعبة، لكن هناك فوق النيل، أتانا الإيمان بأنفسنا، ولقد كنت أعرف كقارئة للتاريخ وككاتبة أن كل ما سيأتي بعد تلك اللحظة سيكون في سبيل هدمها، ومحوها تماما من وجداننا.

ضرب لي "ريتشارد" المثل بنوح وسفينته، وذكرت أنا فرعون والسحرة، كان الإيمان خطيئتهم، فقطع أيديهم وأرجلهم، في زمننا نحن كان جزاء المؤمن فقء العين.

عندما علّمونا في التاريخ أن المستعمر الأجنبي عاملنا كالعبيد وضربنا بالسياط؛ ليحفر قناة وسلبنا حق خيرها، وعرّفونا أن كل

مرة تمردنا على الأجنبي طردناه كي نتحرر، لم يخبرونا إن كان المستعمر منّا، وإن كان العبد هو السيد، والأرض واحدة والرصاصة مرتدة، ماذا نفعل عندها؟

لم يخبرونا، لكنهم دفعونا دفعا ناحية السفر، البحث بين أراضي الأرض، عن رزق وعيش وكرامة لم نجدها في أرضنا، عتق العبد كان ثمنه الدم؛ لأن الأرض واحدة واللون واحد.

لم أؤمن أن مصر ستتغير، ولا أن الأحوال ستتحسن، ولا أن لي بها رجلا أو بيتا، فآثرت السفر بعيدا، وتيقنت "فيوليت" بعودتي وبقت في الإسكندرية وشاهدت البلد وهي تحترق.

ومن الأبيض المتوسط إلى النيل الأسمر عدت مثقلة بالحزن كما ذهبت، فقط مكالمة من عند البحر الأحمر أتتني لتسعدني، حيث "منى" بشهر العسل تجرّب حياتها الجديدة، سألتها عن حال السياحة الذي أعرفه، ومزحت معها كثيرا، وتطلعت إلى الهرم البادي من بعيد، وأنا بالتاكسي متوجهة ناحية بيت "شهد"، أردد من قلبي:

أعاد الله لك العمار يا مصر.

* * *

(١٩)

قطرة أخرى من الحزن لم تكن لتزيد الكأس سوى امتلاء قد بلغه بالفعل، بكاء "شهد" وأساها، وسواد ظلال لقائنا، لم تفرق عن معظم الظلال التي خيمت على الأسبوعين اللذين مرا عليّ أطول مما تصورت، لولا ثوب "مني" الأبيض لما كان بتلك العتمة بقعة ضوء.

لم أؤمن أبدا بكلمات العزاء، كل الكلمات نعرفها ويظل الموت هو الحقيقة الأقوى، ولقد شهدت قصة حبهما كاملة، وأراد لي الله أن أكون معها حتى نهايتها، بكت "شهد" أمامي، وودت لو أبكي معها، لكني لم أستطع، كانت دموعي أبية، كعادتي.

مسحت أنفها الدقيق بمنديلها الأبيض، وقالت بصوت مختنق :

- اعذريني ، لا أستطيع التوقف عن البكاء .

لم أردّ عليها، مددت يدي وربّتّ على كتفها الصغير، وأنا لم أزل جالسة على طرف الكنبة المجاور لمقعدها، في صالون بيتها الأنيق؛ تطلعت لبرهة للسجادة الحريرية اليدوية تحت قدمي، ثم رفعت نظري إليها وقلت:

- أشعر بك.

مسحت وجنتها، ثم وضعت كفها الصغير مسترخيا بحجرها بالمنديل الأبيض المبتل بقلبه، بينما كفها الآخر مجاورا، مفتوحين لأعلى وكأنها تستجدي، وقالت بلوعة:

– لو أنه بقي، حتى لو ليس معي، فقط يبقى حيّا.

غمغمت أنا:

– لا إله إلا الله.

فتمتمت هي بالشهادة فورا، ثم استرسلت:

– كان رجلا بحق، لاموني جميعهم على بقائي معه، أمي وشقيقتي، وأصدقاؤنا، لم يفهم أحد أبدا ما بيننا، كان رجلي أنا، لم يخذلني ولو مرة واحدة، في عز خلافنا، إن أصابني ما يكره يتناسى كل شيء ويطغى حنانه عليّ، عندما أجريت عملية المرارة، الشتاء الماضي، فتحت عيني لأجده جالسا على طرف فراشي، ماذا تريد المرأة غير هذا من رجلها؟ الأمان والثقة.

في الموت لا نذكر سوى خير الراحلين، لكن "شهد" كانت تذكر كل شيء، تركتها تكمل وأنا صامتة تماما، أودّ لو أقوم

لاحتضانها، لكني أخشى أن تجهش بالبكاء فتركتها تتحدث عنه معي، أنا التي ظلت صديقتهما، وعرفت ما بينهما:

- نعم، كانت به عيوب، وتقبّلتها، كان ضعيفا أمام أمه، وأنانيا في كثير من الأحيان وعنيدا بغباء، لكني قبلته هكذا؛ لأني أنا التي عرفته كما هو لا كما رآه الآخرون، أوَليس هذا هو الحب؟ نعم، رأيت سوءته ورأى أسوأ ما بي، وتشاجرت معه وهجرته وعدت إليه وحاولت الهرب لغيره، وأهنته وأهانني، كنا أحمقين، أحمقان يعرفان أن كلا منهما يعشق الآخر رغم كل شيء، وهو قبلني بعيوبي، بحدّتي وغيرتي وجنوني، وعصبيتي، ولم يحب سواي، ولا رأيت في الرجال من يقرب من مماثلته.

تنهدت أنا وأردفت هي مختتمة رثاءها:

- كان سندي.

قلت لها بصدق:

- محظوظة أنت أن شعرت هذا مع رجل ولو إلى حين، كثيرات يتمنين ذلك الشعور وتلك الثقة مع زوج أو ولد.

اختنق صوتها وهي تذكر:

- لم أسامحه أبدا أنه رفض أن ننجب، كان يعرف أني أحب الأطفال، ولقد كنت أعشقه وأود طفلا منه.

ثم قالت بأسى:

- لصار ابنه سلوى لي اليوم.

قلت لها مهوّنة:

- لله حكمته.

تنهّدت قائلة:

- ونعم بالله.

قلت لها بحزن:

- لا أملك ما أقوله لك، ولولا سفري لقضيت معك أطول وقت ممكن.

التفتت لي وسألتني كالمتذكرة:

- كيف ستسافرين؟ ظننتكما ترتّبان للزواج.

ابتسمت ابتسامة أسى:

- لم نتفق على الزواج، على الأقل ليس حاليا.

ثم عقبت مخبرة إياها:

- لقد أنهينا ما بيننا.

قالت لي:

- اختياراتك في الرجال خاطئة.

ابتسمت مؤكدة:

- يبدو أن هذا صحيح.

ثم قلت لها وأنا أذكر حديثي مع "فيوليت" ونعتها له بالجنون ودفاعي عنه:

- ما آلمني يا "شهد" ولم أسامحه عليه أنه حوّل ثقتي به لخطيئة، يجب أن أدافع عنها أمام الجميع بما فيهم هو.

هزت رأسها:

- لا يكفي دفاع كل منكما عن منظوره، تمسك كل منكما بالآخر هو الأهم.

قلت لها:

- لقد خشيت، خشيت أن أعلق في ألم لا نهائي.

سألتني:

- و هل ارتاح أحدكما؟ هو وحيد وأنت وحيدة، وسيبحث كل منكما عن آخر ويعيد الكرة.

سألتها:

- وهل ارتحت أنت صديقتي؟ لقد أبصرت ألمك عن قرب، أرعبني.

قالت لي بصوت هادئ:

- مقابل كل ألم كانت هناك لذة لا توصف، لذة لا يعرفها سوى من يستغني بحبيبه عن العالم ولو كلّفه هذا نفسه.

ثم عقبت قائلة بثقة وهي تربّت على قدمي:

- هو لم يحبّك، إن أحبّك لما أفلتك من بين يديه أبدا، اسأليني أنا، الرجل الحقّ لا يفلت امرأته ولو بالموت، ما يبرد ناري أن "بهاء" تركني وأنا امرأته.

نظرت لها والسؤال بعيني، فقالت مفسّرة:

- وكأنه حبيبي كان يشعر، من ثلاث شهور عدنا، ووضع باسمي وديعة بالبنك، صمّم على هذا بشكل غريب، وكأنه كان يشعر بقرب رحيله.

ثم بدأت في البكاء وهي تكمل:

- ظللت ألح عليه ألا يفعل، ما كان يعطيني كان دائما أكثر مما أحتاج، كان يعرف أنه سيرحل وأنه لا إرث لي بينهم، لو أني أعرف أنه سيرحل لما تركته من بين ذراعي أبدا، كان

يجب عليه البقاء بحضني أنا، على فراشي أنا، لم يكن به أي خطب، كيف خطفه الموت صغيرا هكذا؟!

أطرقت ولم أعلّق، وقالت هي من خلال دموعها:

- اختاري رجلا بحق، يستحقك، يقبلك وتقبلينه، لا تعيشي وحيدة، الوحدة صعبة.

ثم بما يشبه الابتسام قالت متذكرة:

- لم نبتعد أبدا، في عز خلافاتنا، يسأل عني متحجّجا بمسئوليته التي يشعرها تجاهي، كان دوما هنا.

قلت لها وأنا أذكر:

- كنا نفعل هذا، كثيرا ما ذكّرني بـ" بهاء" –رحمة الله عليه– ولكم أخافني هذا.

ثم عقبت مفسّرة كي لا أجرح مشاعرها:

- " بهاء " كان صعب المراس يا "شهد"، بالنسبة لشخصي، أنا أختلف عنك.

أجابتني:

- هذا صحيح، لكني لا أعتقد أن صعوبة شخصه هي ما جعلك تتركينه، ما احتجتِه منه لم يعطك إياه، وقد يتوازن بعد

انفصالكما ويعود لك واعدا إياك بما تحتاجين تحديدا، غالبا نشعر بقيمة ما نفقد.

قلت لها:

- المهم ألا يكون قد فات الأوان.

شردت مجيبة إياي:

- أوان الحياة لا ينتهي إلا بالموت.

تركت شهد وبداخلي حنين، ورغبة عميقة في الهتاف باسمه، بمناداته به، بشعور حروفه على طرف شفاهي، تركت "شهد" وبداخلي شوق لكل تلك اللحظات الطيبة، كل اللحظات التي وقف فيها بجانبي رغم قصر عمرنا معا، وكل الصدق الذي أحببته فيه، وكل الأيام التي مرت علينا، ونحن لا نتوقف عن الكلام ولا عن الرغبة أن نكون معا، يبحث كل منا عن مستقبل مستقلّ خاص به، ونخشى أن نقرن مستقبل كل منا بالآخر، ثم تفلت منا تلك الكلمات التي نهرب منها، تلك الأمنيات التي تداعب أحلامنا على استحياء.

عن أبنائنا المحتملين الذي سيرثون ملامحنا المتشابهة، وشجاراتنا التي لن تنتهي إن صرنا زوجين، والطعام الذي سأعده

من أجله، والأشياء التي سيضحي بها من أجلي، كل الأمنيات التي كنا نتمناها خلسة، وسط عدم تقبّلنا لواقعنا وماضينا وحاضرنا والمودة التي علقنا بها، دون مبرر مقنع لأي من المحيطين.

* * *

(٢٠)

– لماذا لا تجيبي أيا من تساؤلاتي؟

– كل إجابة عندكَ باب لسؤال آخر، داخلك أتون مستعر لا يهدأ، كل الأشياء صارت حطبا.

– هل تحبينني؟

– لا أعرف، لا أعرف ما هو الحب، هل تحبني أنت؟

– تلاعبيني.

– تلاعبنا الأيام، صدقني، كل ما علمونا إياه، وكل ما لم يعلمونا، نقضته الأيام وشتتنا الحيرة.

– تقولين كل شيء وكأنك لا تقولين شيئا.

– الفعل أهم من الأقاويل، راجع أفعالي معك في عقلك ستجد كل الإجابات.

– أفعالك تناقض المنطق.

– أي منطق؟

– منطق عقلي.

– كما شئت.

- هذا ما أكره بك تتمايلين معي، لا تثبتين، ماذا تبغين مني؟

- ثباتي يلزمه ثباتك، ولا أبغي منك أكثر مما أخذت بالفعل.

- وماذا أخذت؟

- جمال مرافقتك.

- أي هراء هذا!

- أرأيت! أجيبك لتكذبني، هذا هو الصدق.

- وماذا بعد المرافقة وجمالها؟

- لا يوجد بعد.

- كيف؟ يجب أن يوجد بعد!

- من قال؟

- تلك هي الطبيعة.

- أي طبيعة؟

- طبيعة العلاقات حيث أحدنا يجب عليه حمل الآخر عبئا ليسير به على الطريق، لا أريد حمل أحد.

- أنا الأخرى لا أريد حملك، ولي قدمان وباستطاعتي السير وحدي أو مرافقة.

- سيجب عليّ في النهاية حملك.

- لا يجب عليك شيء، ولا علي، ولقد تحررت من هذا الوهم.

- أي وهم؟

- وهم السير بقوة الدفع، حيث كل خطوة تؤدي للتي تليها بينما الطريق غير ممهد والخطى غير محسوبة، وإرادتنا أقوى من السوط الوهمي المسلط على ظهورنا.

- كلماتك تلك تصلح لإقناع أوراقك، وقرائك، لا تصلح لإقناعي أنا.

- وبمَ تقتنع أنت؟

- بما يخبرني به عقلي والحياة.

- إذا سر بحياتك كيفما شئت، ارحل عني أو دعني أنا أرحل.

- في النهاية نرحل جميعا، نسقط واحدا تلو الآخر.

- قل لنفسك، لا نملك شيئا في الأساس، كل ما نملكه سنتركه، ماذا سنفقد إن خضنا التجربة؟
- سنتألم.
- وهل نحن الآن في راحة؟
- سيحاكموننا.
- ومتى لم يفعلوا؟
- أتريدين البقاء؟
- كلا، لن أبقى، وأنت لا تريد بقائي.
- أتريدين أنت بقائي؟
- لم أعد أثق بك.
- لم أفهمك.
- لا أملك إفهامك.
- وماذا بعد؟
- لا يوجد بعد.
- أنا غير مقتنع.
- لا تقتنع.
- لماذا تسافرين وتتركينني؟

- لأن المرأة أرض والرجل وتد والغربة قَدَر المستضعفين.

* * *

(٢١)

مر الوقت وحملنا بعيدا عن تلك الأيام، لكنه لم يحررنا جميعا بعد، والكتابة كانت اقتناصا من الحاضر من أجل المستقبل، من أجل إدراك معنى للتحرر وجمال شعوره، في سبيل إجلال التقبل والعائد منه.

حملني الوقت عندما اتكأت عليه ووصل بي حيث الحب، عرفت ذلك الشهد الصافي دون شائبة تعكّره، حيث اللحظات ابتسامة واسعة، والأيام ترتيلة حمد وثناء. عندما لا يعني التوازن ألا تكون خائفا، على العكس إنك تخشى على ما وهبت، إنك تشعر الخوف والغيرة والتملك ولا تدفعك تلك المشاعر بعيدا ولا تلح عليك بالرحيل، إنك تتمسك أكثر وتعطي أكثر.

يعطينا الله كي نعطي ويحرمنا كي ندرك قيمة ما وهبنا، ونحن أحرار نختار كيفما نشاء، ويجب علينا تحمّل عواقب اختياراتنا، لكن تلك الكلمات "الحب والحرية"، يلزمنا الكثير كي ندركها، وأحيانا لا ندركها أبدا، فنظل مغتربين عن المحبة، ونظل مُكبّلين. وكان يجب عليّ الكتابة، فمن باب أولى أن نعتق أنفسنا إن لم نجد من يعتقنا، والخزي الحقيقي يكمن في استسلامنا لمهانة

عبودية لا نستحقها، وأنا في يوم آخر قهرت الخوف الذي أسرنا، وصرت امرأة أخرى، امرأة قادرة على أن تؤمن، قادرة على أن تعطي وتأخذ وتتشارك الطريق دون وجل .

والكتابة جعلتني أرى صورتي أنا في ذلك الوقت، وقت أن كنت معه، وكيف بدوت بعد رحيله، وكيف كان رحيلي متوقعا لكنه لم يكن حتميا، ففي الحياة لا توجد نهايات للحكايات.

حياة المرء كالسيرة، عدة حكايات متتالية تصلح كل منها لليالي سمر حول دفء نور الرواية وصوت الراوي..

لكننا -كبشر- وبعاطفية مبررة نحب أن نجعل من وقفات السعادة بالحياة خواتيم.

فننهيها بكل ما يصلح في واقع الأمر كبداية أخرى.

(الزواج، بلوغ النجاح، تحقيق الحلم... إلخ)

وحتى الموت أحيانا لا يعدّ نهاية؛ فموتك غالبا ما يكون هو المحفز للآخر من أجل إخبار حكايتك، المتتاليات تربط الحكاية الواحدة وتربط حكايتنا ببعض.

والأفلام والقصص تنتهي بأن يلحق الرجل بامرأته في المطار ويستبقيها، وينتهي الحب بحذاء في قدم امرأة وزفاف! لا يخبرك

أحد أن تلك النهايات هي بدايات، وأن الحب الحق يجب علينا مقاومة انتهائه، وأن الحياة ما هي إلا لمحة واحدة لا تنتهي إلا يوم تغمض عينيك مرغما وتؤتى البصر.

في المطار، لم يكن معي رجل، سرت وحدي أجرّ خلفي حقيبتي الصغيرة، مجرد امرأة مصرية عادية جدا، لا يوجد بها ما يلفتك، وقد أمر بجانبك ولا تلحظني، بداخلي ما خلّفه بي عمري وخلفي ما أراده الله لي، وأدبّ بكعبي العالي في طريق يومي، ولا أعرف إن كنت سأصل للغد.

مجرد امرأة، تطلّعت من نافذة الطائرة لترى وطنها الذي بدا ممتدا وشاسعا من أعلى، وأجدب رغم خضاره، وفكّت حزام الأمان، وزفرت في توتر، وأسندت رأسها للوراء وأغمضت عينيها محاولة إفراغ ذهنها الذي لا يفرغ.

هل سافرْتُ و عدت سريعا كما تيقنت صديقتي؟ أم أخذتني الغربة؟

هل نُشِر كتابي أم رفضوا نشره؟

هل قابلت الرجل الذي لا أخبر اسمه قبل سفري؟ وهل عدت إليه؟ هل صرت مع آخر أو صار مع أخرى؟

وماذا كان اسمه؟ وهل بُحْت به يوما؟

ومن أتى ليحكم وطني؟ وهل حضرت ذلك اليوم الذي عرفت فيه بلدي اسما لرجلها الذي لم تبح باسمه هي الأخرى؟

تلك كانت أسئلة تشبه أخرى شغلت بالي يومها، كلمرأة عادية، لم تتوقف عن المسير بعدُ.

لكن الإجابات كانت، وكما هي العادة، حكايات أخرى.

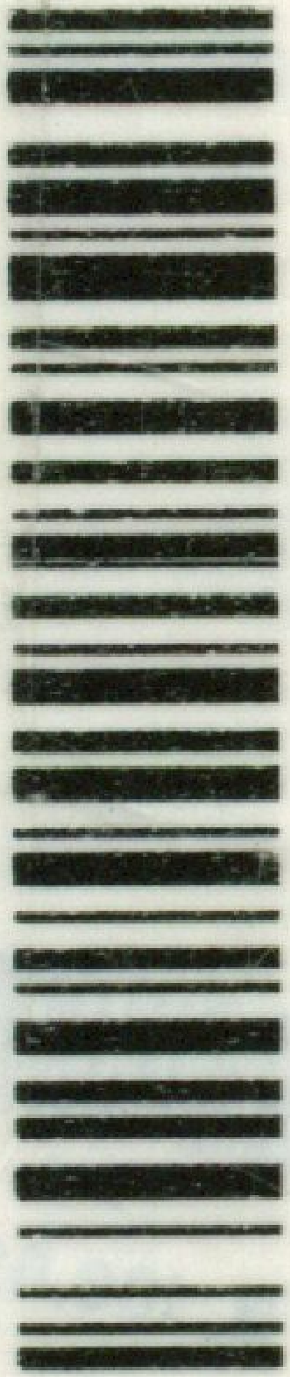
* * *

(تمت)

عِتق

اليوم وأنا أكتب وبعدما ولّت أيام الاضطراب، ووقفت على أرض الثبات أستطيع القول بمنتهى التحرر أن الحب بسيط، رغم تعقيده، وأن أرواحنا تنجذب بصدق ونفسد عليها صدقها، انجذاب أرواحنا هو لحظة حالية، حاضرة يتنازع عليها كل من الماضي والمستقبل ليفسداها، فنرحل، والرحيل هو شكل من أشكال عدم التقبّل.

وقد كان رحيله حتميا ومتوقعا وأحيانا يتشككون إن كان قد جاءني حقا أم إنه محض خيال، وقد كنت أعرف بحتمية رحيله، لكنني لم أسأل كيف أجد له طريقا بعده؟







تصميم: إسلام عبد اللطيف